مستنقع الخطيئة

رواية

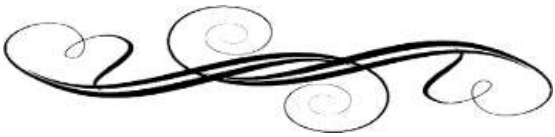

هشام أجران

الطبعة الأولى ٢٠٢٢

ديـوان العـرب للنشـر والتـوزيع

عنـــوان الكتاب: مستنقع الخطيئة

اســــم المـؤلف: هشام أجران

التصنيف الأدبي: رواية

رقـم الإيـــــداع: 11925 / 2022

الترقيـــم الدولي: 6 - 421 - 998 - 977 – 978

التدقيـق اللغوي: د. هبة ماردين

تـصـميم الغلاف: شيمـــاء منـيـر

التنسيق الداخلي: محمد وجيــه

رقــــم الطبـعـة: الطبعة الأولـى

المديـــــر العام: د. فادية محمد هندومة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر – بورسعيد

تليفون: 00201211132879 – 00201030502390

بريد الدار: mohamedhamdy217217@gmail.com

مستنقع الخطيئة

رواية

هشام أجران

ديوان العرب للنشر والتوزيع

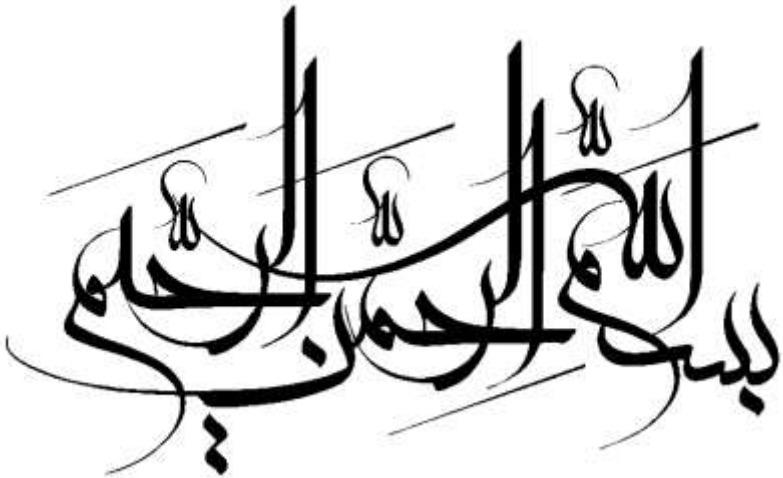
بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى الذين تملأ قلوبهم محبة الإنسان
أينما كان.... وكيفما كان
إلى أولئك الذين آمنوا
بأن العطاء هو سبيل السعادة
إلى الأخيار في كل زمان ومكان
إلى الأحبة
من بصموا حياتي، واستحقوا مني كل معاني العرفان

هشام أجران

****

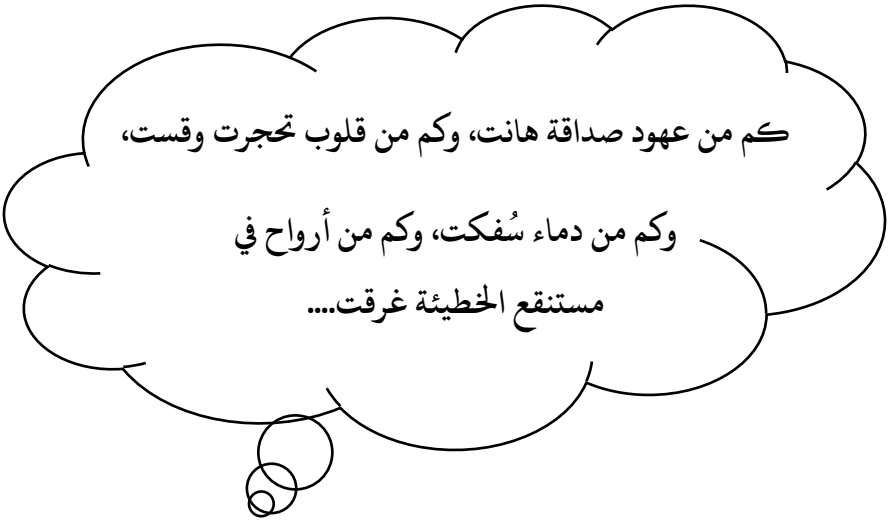
كم من عهود صداقة هانت، وكم من قلوب تحجرت وقست،
وكم من دماء سُفكت، وكم من أرواح في
مستنقع الخطيئة غرقت....

- "ترى ماذا يخبئ الغد؟"

نطقها في نفسه فلم يكن ليصْدح بها فيقطع صوت ذلك الشيخ وهو يرتل آيات من الذكر الحكيم، بصوتٍ لم تؤثّر فيه السنوات فاحتفظ بقوته وصفائه. "مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ".

لا يذكر أين حفظ هذه الآية، لكنه يرددها اليوم، وآيات أخرى كثيرة تجول في رأسه.

انتهى الشيخ من تلاوة القرآن بينما انهمك شابان في ردم التراب على ذلك الجسد المسجى في سكون داخل القبر. رماه بنظرة أخيرة مليئة بالحزن والأسى، وأعاد تلاوة الفاتحة قبل أن يتوجه لتقبل التعازي من الحاضرين.

-لقد كانت سيدة فاضلة رحمها الله.

-تسلّح بالصبر فالصبر سلاح المؤمن.

-تلك مشيئة الله والموت علينا حق فليرحمها الله عز وجل.

كثرت عبارات التعزية بينما اكتفى هو بترديد: شكر الله سعيكم.

لم يكن هناك حضور كبير، فقط بعض الجيران والأصدقاء وآخرين لا يعرفهم، ربما هم باحثون عن الأجر والثواب، يؤمنون بأن البشر إخوة فسيان عندهم بين فقير وغني وبين رجل وامرأة وبين قريب وغريب. ربما!

التفت جهة القبر فلم يرَ سوى كتلة تراب وضع فوقها عمود خشبي في انتظار وضع لوحة تحمل اسم الفقيدة.

الموت؟ لا يبقى من الإنسان سوى ذكرى، سوى كتلة تراب ولوحة خشبية، واسم. هذه المرأة التي عاشت لستة عقود واحتضنتها الحياة بأفراحها وأتراحها، وكانت يوماً جسداً يطفح بالشباب والجمال، وعقلاً يفيض حيوية وبهاء، ها هي اليوم قد أصبحت اسماً منسياً على لوح من خشب. لم يتذكر كم رأى من جنازة في حياته، وكم مرة سمع عن الموت وقرأ عنها، لكنه لم يكن ليأبه لذلك فمن غرائب البشر أننا نخلق وفطرة الحياة والموت تجري في عروقنا ليتولد نوع من التسليم بأن الموت حق، وأن كل البشر مصيرهم كفن أبيض. لكن هذه المرة يختلف الأمر، فالفقيدة هي أعز الناس بالنسبة إليه، إنها أمه.

منذ أن وعى الدنيا وصورة أمه لا تفارق عينيه ولا خياله، هي أمه وأخته وصديقته. يتذكر ثديها وهي تسقيه نخب الحياة، ويدها وهي تمسح شعره في حنان، يتذكر حكاياتها القديمة في الليالي الباردة، ويتذكر عينيها، لقد ورث عنها نفس العيون، عينان عميقتان لو نظرت إليهما عن بعد لبدا لك حزن الدنيا فيهما، ولو دققت النظر عن قرب فستلمح بريقاً من نوعٍ غريبٍ فكأنهما يسخران من كل الأحزان.

"كانتْ جميلة" نطقها في نفسه ولم يكن مخطئاً، فأمه فعلاً كانت جميلة، لكن النهاية كانت سيئة. لقد ظهر جانب آخر من غرابة الحياة فتحول

الجسد الشاب الفاتن إلى كتلة من التجاعيد واللحم المتهدل، وساد الظلام العيون العميقة؛ فضاع بريقهما وطيف السخرية فيهما، لم يبقَ من الجمال سوى صورة وضعت في غرفتها تذكرها بأيام العز وتذكره بحكاياتها القديمة كل ليلة.

منذ سبع سنوات أصبحت الأم طريحة الفراش، عانت من مرض خبيث أفقدها القدرة على النطق والحركة، كان يمضي معظم وقته خارجاً يتوه في الطرقات ويطرق الأبواب بحثاً عن عمل، فمصاريف الدواء كثرت والأطباء ينصحون بتوفير أغذية مفيدة، لكن اليد قصيرة والعين بصيرة. آه لو كان أبوه حياً لربما تغير الأمر. إنه حتى لا يعرفه، لم يترك صورة ولا ذكرى، وأمه كانت تتجنب الحديث عنه وتكتفي بالقول: "رحمه الله، لقد مات دفاعاً عن الوطن" هكذا رسم صورة عن أبيه الجندي الشهيد، تخيله طويلاً، قوياً، صلباً. وتمنى لو كان حياً، لكنّ الموت يقطع حبل الأماني دوماً وأبداً. إنه يتذكر الآن الوقع الذي يخلفه قوله ذاك عن والده داخل القسم، لم يكن يهتم لنظرات الدهشة من زملائه ولا لابتسامة هادئة من معلمه، بقدر ما كانت تثيره ضحكات كتومة تكاد تنفلت من زميلَيْن، ومن غريب الصدف أنهما كانا جاريْن أيضاً، كأنهما كانا يسخران من قوله بل أكيد أنهما كانا يسخران، فقد حدث أن ضبط أحدهما يغمز للآخر في حركة مستفزة أثناء حديث جماعي، فما كان منه إلا أن رد الاستفزاز بلكمة قوية استقرت على وجه الزميل الوقح، وثار الغبار بانضمام الآخر. وفي النهاية نال احترام

زميليْه وخرج من العراك بجرح غائر في الجهة اليمنى من جبهته. كان هادئاً معظم الوقت، ولكن في لحظة الغضب يصبح شرساً وعنيفاً.

شعر بالكآبة لتذكره ذلك الحدث ومضت يده تتحسس أثر الجرح القديم، ثم تراءت أمامه صورٌ عديدة؛ نساء الحيّ وغمزاتهن وهمسات يتبادلها الكبار عندما يمر قربهم أو يسلم عليهم، وتذكر آخر عراك له، لم تهمه اللكمات التي شوهت بعضاً من وسامته، ولا الدماء التي سالت من أنفه بغزارة، بقدر ما أثارته عبارة أطلقها خصمه: " اذهب يا ابن الزا ...".

انتفض في قوة محاولاً نفض الذكرى الأليمة عن ذهنه، واستجمع قبضته في عنف وغضب. لماذا يتذكر كل شيء الآن؟ وها هي أفكاره وذكرياته تجعله يخطئ الطريق، طبعاً هو يملك العذر فما حدث خلال الأيام القليلة الماضية كان أشبه بحلم منه للواقع. تلك السيارة الفخمة تتوقف في الحي البائس، ذلك العجوز يطرق الباب ويدخل دون استئذان متوجهاً نحو غرفة الأم مباشرة، وبعد مدة ليست بالقصيرة يخرج ليبادره بالقول:

-"كيف حالك يا سعيد؟ لقد أصبحت رجلاً آخر مرة رأيتك فيها كانت منذ زمن طويل. أراك مندهشاً تتساءل من أكون؟ أنا خالك، الشقيق الوحيد لأمك، قد تسأل أين كنت طوال هذه المدة؟ لكن الوقت لا يسع للإجابة. لقد جئت اليوم لأزيل عن كاهلي ديناً ثقيلاً أنأت بحمله عقوداً طويلة. اسمع يا سعيد، لقد أصبحت أيامي معدودة وأتمنى أن ألقى الله بنفس طاهرة نقية، قد أضلتني شهوات الدنيا وأعماني حب المال فنسيت عهد

الأخوّة واغتصبت حقوق أختي الوحيدة بالباطل طمعاً في المال والجاه والثروة."

سكت قليلاً ليلتقط أنفاسه اللاهثة واقترب أكثر من سعيد وبصوت غلب عليه الضعف أضاف: "واليوم تنتقم عدالة السماء فتزرع بداخلي بذرة خبيثة تهدد قلبي بالتوقف في أي وقت، تصورت أن بإمكاني أن أرتاح بعد زيارتكم لكنّني ازددتُ سوءاً. منظر أختي البائسة زاد من جراحي وندمي، قلت لها كلاماً كثيراً وذرفت دموعاً صادقة، لأول مرة أبكي بصدق لكنّني فوجئت بها لا تحرك ساكناً، عيناها بقيتا مركزتين على الصورة القديمة ويداها لا تكفان عن تحريك حبات السبحة، آنذاك عرفت أنها لم ولن تسامحني. اسمع يا (سعيد)، في هذه الحقيبة ستجد حق أمك المغتصب، أريد منها فقط أن تسامحني، فحاول إقناعها بذلك. إليك رقم هاتفي، اتصل بي وأخبرني ردها. أتمنى أن أغادر هذه الدنيا وقلبي مطمئن. وداعاً يا "سعيد"."

كم كان كلامه مؤثراً وصادقاً، شعر للحظة أنه يحبه، ليس لأنه خاله، بل لأن نبرة غريبة في كلامه تجعله محبوباً، لكنه مضى ولم يبقَ من طيفه سوى ورقة صغيرة عليها رقم هاتفه، وحقيبة.

ارتفعت نبضات قلبه وزاد إيقاعها وهو يتذكر لحظة فتح الحقيبة الجلدية، لم يدر كم بقي من الوقت جامداً، ساكن الحركة، ولا يتذكر متى قرأ كل الأوراق، ولكنه يتذكر بوضوح تلك الصرخة المنبعثة من أعماقه، صرخ بكل قوة، وأعاد الصراخ، راودته فكرة أنه ربما يجن، فتمالك نفسه، وعاد

ليتفحص الأوراق. ظن أنه يحلم، فانهال على خده بصفعات متتالية، وكان الإحساس بالألم علامة على أنه يعيش الواقع. عقود بيع وملكية لأراضٍ وعقارات بينها فيلا فخمة، وأرصدة بنكية تسيل اللعاب، وإن أحس بلسانه قد جف لعابه من شدة التوتر، ومعمل للنسيج. كل ذلك سيصبح له وحده.

شعر بأنه تغير، فلأول مرة يفكر بصيغة المفرد، هو من كان طوال حياته يربط ذاته بأمه، كانت جزءاً منه، ومن روحه. ما باله نسيها الآن؟ إنها المالكة لكل شيء، هي صاحبة النعمة، ها هي حكاياتها القديمة تتحقق، الفقيرة التي أحبها الأمير، والبؤساء الذين تدور بهم عجلة الزمان، فتمنحهم في لحظة ملاعق ذهبية تعلن عن ميلاد جديد. أمه الفقيرة قد أصبحت أميرة، وخاله هو الفارس الشهم المغوار، وهو...؟ إنه الغد، المستقبل، ملك ينتظر التتويج.

ضحك من غرابة أفكاره، واستمر في صراخه وصخبه، لكن عليه ألا ينسى وصية خاله، عليه أن يقنع أمه بأن تسامحه، حركة تعلن فيها عن رضاها وصفحها. سيكون من الغباء حقاً أن تمتنع، وذلك الرجل فتح لهما أبواب الجنة. اقتحم باب الغرفة، لم يبالِ برائحة المرض تسود أرجاءها، ولا بكآبة يضفيها عليها المصباح ذو الإضاءة الخافتة، إنما اتجه مباشرة نحو السرير الخشبي القديم، وأمسك يدها، يدٌ باردةٌ، بارزةُ العروق، أمسكها بكل ود وحنان وانتظر أن تفتحَ عينيها كالمعتاد. "رباه. إنها لا تمسك بالسبحة." قالها بهلع وهو ينظر للسبحة الملقاة على الأرض. ماذا حدث لها حتى تتخلى عن

سبحة تعلقت بها لسنوات. اقترب من وجهها، وخفق قلبه في عنف، وهو يرى مسحة الموت عليه.

كأنما حكمت عليها الأيام أن تعيش البؤس، وحين يدنو منها ربيع الحياة، فعليها ألا تعيشه. ماتت، فليرحمها الله.

لم يعد هناك داعٍ لسلك نفس الطريق، ثلاثون عاماً، وهو يطالع نفس المنظر، منظر الشارع الطويل، والزقاق الضيق، والحارة الشعبية ذات البيوت المتهالكة، والعمارة الوحيدة التي فقدت لونها الأبيض، وتسربلت بوشاح أصفر شاحب، هو مزيج من مياه الأمطار وحرارة الشمس والغبار وسوء جودة الصباغة. ثلاثون عاماً وتلك الرائحة تزكم أنفه، رائحة المجاري، فلا قنوات الصرف المغشوشة حلت المشكلة، ولا حلول السكان الترقيعية أثبتت نجاعتها. مناظر كثيرة تجول بخاطره، أطفال حفاة يفترشون الأرض الصلبة، الدكان الوحيد، وحلاق الحي الأعرج، وذلك المقهى ذو الكراسي الحديدية، جل رواده حشاشون وسكارى، قد شوهت وجوههم آثار الطعنات، ومعارك الليل التي لا تنتهي.

عليه أن يألف طريقه الجديد، ووضعه الجديد، فغداً موعد مع حياة ذات نكهة جديدة، غداً تفتح الجنة أبوابها له وحده. ابتسم بعد أن راقت له الفكرة، وأكمل طريقه في صمت.

- "كل نفس ذائقة الموت" صدق الله العظيم.

- إننا لا نتذكر الله إلا في الأوقات العصيبة، يا للمأساة.

- تكلم عن نفسك يا (خالد)، فأنا، والحمد لله، أتذكر الله وأذكره في كل حين. في صلاتي، ودعائي، وحتى في لحظات صمتي لا يفارق ذكره قلبي وكياني. وأتوكل عليه في كل أمور حياتي، والحمد لله لم يخب رجائي فيه يوماً. الحمد لله.

- لهذا أنت تعيش في قصر فخم، وتملك الكثير من الخدم والحشم.

- كفى من السخرية يا (خالد). ليس المال مفتاح السعادة الوحيد في هذا العالم. فكم من غني يعيش بئيساً. السعادة هي مبتغى البشر، لكن هيهات أن تصل إليها بدون الإيمان. فبالإيمان وحده تسمو الروح، ويهنأ القلب، وتُفتح لك كل السبل...

قاطعه (خالد) فجأة قائلاً:

- دعنا من هذا الكلام الآن يا (عبد القادر). قل لي، كيف بدا لك (سعيد) اليوم؟

- لقد كانت صدمته قوية في فقدان أمه، فهي أقرب البشر إليه. كم أرثي لحاله.

- ألم تنتبه لشيء أثناء مراسيم الدفن؟

- ماذا تقصد؟

- لقد دققت النظر في (سعيد)، لست أدري لماذا، كان مجرد خاطر غريب جال بداخلي. وطيلة تلاوة الشيخ، وخلال تقبله للتعازي كان شارداً، تائهاً في عالم غير عالمنا، كما أني لم ألحظ في عينيه ولو دمعة حزن.

- إن الحزن الأشد يا صديقي، هو الذي يظل حبيس الأعماق. فتحس لحظتها بغصة تقف في حلقك، تسد أنفاسك، وتشعرك بالضيق. حينها تنشد البكاء عله يخلصك من إحساسك المؤلم ذاك، ولكنك لا تجد له سبيلاً.

حرك (خالد) رأسه وقال:

- حال (سعيد) هذا اليوم لم يرق لي. إنه صديقي، أقصد صديقنا منذ زمن. ولقوة علاقتنا ومتانتها، فقد تولد لدينا نوع من الإحساس بالآخر، ننتبه لحزنه بمجرد رؤيته، أو سماع كلمته الأولى، ونشعر بفرحته قبل أن نراه. ولقد عشنا أياماً كثيرة معاً، تشاركنا أفراحها وأحزانها وغرائبها. لكن اليوم، شيء في أعماقي ينبئني أن (سعيد) يخفي عنا شيئاً.

طيلة كلامه، كان (عبد القادر) يومئ برأسه دلالة على أنه يتفق مع كلامه، وأردف باهتمام:

- إنك محق. وقد انتبهت الآن لتصرفه بعد توديعنا. كنت أظنه سيدعونا لمرافقته، وقضاء الليلة معه، فلا أتصوره وحيداً في غرفة ألِفَ وجود أمه فيها، ولكنه لم يطلب، ولا حتى أومأ بذلك. ترى ماذا حدث؟

- لا تقلق، غداً سنتأكد من الأمر. وأول ما سنفعله هو زيارته والاطمئنان عليه، ما رأيك؟

- إن شاء الله.

وصلا إلى مكان افتراقهما، فتوادعا على أمل اللقاء صباح الغد لزيارة (سعيد). كانا يجسدان بالإضافة لهذا الأخير، ثلاثي صداقة إن صح التعبير، نسجوا عهد محبة ووفاء منذ زمن. جمعت بينهم ظروف الدراسة ومشاغلها، ومغامرات الشباب، وقساوة الحياة وتقلباتها. والغريب أن شخصياتهم لم تكن متقاربة، ولولا عهد الصداقة الأقوى لما استمرت صداقتهم وقتاً طويلاً.

(عبد القادر)، شاب في عقده الثالث، قادم من الشرق، ينحدر من عائلة محافظة، كان لها بليغ الأثر في تنشئته، فكان متديناً، ملتزماً بأداء الفرائض، متشبعاً بحسن الخلق، كما كان لطيفاً، هادئاً معظم الوقت. أضفى عليه شعره الأشقر، وتورد الدماء في وجهه المكتنز، سحنة أوروبية. وكان صديقاه يناديانه في لحظات كثيرة: "مستر جون"، فيضحك، ليزداد الوجه اكتنازاً وحمرة، ويشع في العيون بريق فرح وبهجة. ورغم تدينه والتزامه، إلا أنه لم يصل يوماً لدرجة التشدد، فقلبه متسع لسماع حكايات صديقيْه، وتقبل

نزوات (خالد) على الأخص. هذا الشاب النحيل، طويل القامة، ذو العينين الخضراوين والأنف الدقيق، والشفتين الرقيقتين، والقادم من الجنوب، والمتمرد دوماً على الحياة وعلى واقعها. نشأ في قرية، تحيطها جبال الأطلس الكبير الشاهقة، واحتفظت ذاكرته بصورة الأب القاسي والمدمن على الحشيش، والذي كان ينهال بالضرب على أمه لأتفه الأسباب. كان (خالد) ينظر أحياناً ليديه ويخاطبهما بأسى: "كم أشفق عليكما، فقد شوه الفأس والمعول نضارتكما."، قضى طفولة صعبة، حاول فيها أن يمزج بين الدراسة وبين مساعدة أبيه في حرث الأرض وإطعام بعض رؤوس الماشية. وبعد وفاة أبيه، هاجر مع أمه إلى الدار البيضاء، حيث استقبلهما خاله الموظف بإحدى الإدارات العمومية، ولحسن حظهما، كان هذا الخال طيباً، رحيم القلب، استضافهما في بيته، وخصص لهما غرفة واسعة في الطابق السفلي من منزله، واستطاع (خالد) أن يكمل دراسته حتى نال شهادته العليا. لكنه ورث عن أبيه إدمان الحشيش، كما ورث عنه العيون الخضراء، وكثيراً ما جلب له إدمانه المتاعب، التي كان يواجهها بذكاء ومكر.

أما (سعيد)، فقد تميز بوسامة تضاهي وسامة (خالد)، واشترك مع (عبد القادر) في سمة الهدوء، لكنه وفي أحيان كثيرة، كان يبدو للآخرين غامضاً، وحتى لصديقيه في حالات أقل، فذلك البريق في عينيه، يحيل إلى الغرابة والغموض. والغموض يجلب الخوف والشك، لكنهما لم يظنا يوماً أن بإمكان (سعيد) أن يشكل مصدر خوف أو ريبة.

- أشرقت الشمس بكامل حلتها هذا الصباح، وأرسلت أشعتها لتغمر الأرجاء بالنور والضوء، ولتبعث في القلوب الحائرة، والأجساد الواهنة، بعض الدفء، ولتجدد فيها طاقة ما فتئت تضمحل بمرور الأيام. وبدت (الدار البيضاء) أو (كازا) كما يناديها ساكنوها، كعروس في صبيحة عرسها، قد تلحفت بثوب ناصع البياض. وأطلقت الطيور زغاريد الصباح بترنيمات عذبة، وهي تتنقل بين أغصان الأشجار الكثيرة والمختلفة الأنواع، والتي تميز هذا الحي الراقي وسط العاصمة الاقتصادية.

هنا يسود الربيع طيلة أيام السنة، هدوء وسكينة، ومساحات خضراء، وفيلات فخمة... وفي واحدة من هذه الفيلات، ساد نفس السكون والهدوء في الطوابق الثلاث، بينما ترك (سعيد) جسده يستريح من عناء الأمس. لم يتذكر متى نام، ولم يشعر بشيء طيلة الليل، هو الذي كان يخشى أن تؤرقه الكوابيس، وتطغى على تفكيره صورة أمه وذكرياتها. لم يحدث شيء من ذلك، بل نام في راحة تامة، راحة لم يستشعرها منذ ثلاثين سنة.

سرتْ إلى أنفه رائحة زكية، كانت خليطاً من رائحة عطر أخاذ، ورائحة الورود المغروسة بكل عناية في حديقة الفيلا. وزادته الثريا الفخمة ذات الأعمدة

الذهبية شعوره الجميل بالفخامة، كما فعل الأثاث الفاخر المنتشر في أرجاء الغرفة.

ترك رأسه تحت رحمة المياه المنبعثة من الصنبور الفضي داخل الحمام الأنيق الملتصق بغرفة نومه، وجرب كل أنواع الصابون، وغسل أسنانه وهو يتذكر في سخرية جارة قديمة كانت تنظف أسنانها بالفحم. اختار بذلة أنيقة، فبدا مختلفاً للغاية عن حالته بالأمس. ونزل درجات السلم الخشبي بخفة، فاستقبلته امرأة بتحية الصباح. لم يسألها عن هويتها، فلباسها، وطريقة وقوفها، قاما بالمهمة. جلس لتناول إفطاره، فأكل بشهية ملحوظة، وتذكر في مرارة كسرات الخبز البارد، وحبات الزيتون، وكأس الشاي المفتقد للطعم. وفي لحظة، قدمت الخادمة لتخبره بأدب أن أحدهم يطلبه في الهاتف.

- صباح الخير (السيد سعيد)

كان صوتاً هادئاً، خافتاً، بإيقاع يحيل على أن صاحبه قد اعتاد على ذلك الاحترام المبالغ فيه والأقرب للمذلة.

رد ببرود: صباح الخير.

- أنا (بوشعيب). أنا المكلف بإدارة معمل الحاج، أقصد معملك (السِّي سعيد) ...

قاطعه (سعيد): -أتقصد معمل النسيج؟

- نعم سيدي. إن العمال والمستخدمين وطاقم الإدارة كلهم ينتظرون قدومك سيدي.

- عليَّ أن أبدأ في مباشرة أعمالي، وأعول عليك في تقديم المساعدة حالياً، تعلم أني أحتاج لبعض الوقت حتى أتأقلم مع ظروف العمل وطبيعته، فكما تعلم...

قاطعه (بوشعيب) بلهفة:

- طبعاً، طبعاً سيدي. أنا في خدمتك ورهن إشارتك. سأكون عندك في أقرب وقت لأرافقك.

- سأنتظرك فلا تتأخر.

- حاضر سيدي.

****

- وصلا معاً إلى الحي الشعبي القديم، وتبادلا التحية مع بعض الجالسين في المقهى، ثم توجها رأساً نحو العمارة التي تغير لون واجهتها الخارجية. وفي الطابق الأول توقفا عند باب خشبي مهترئ. دق (خالد) الباب، وعاود الطرق بصفة أشد بعدما لم يتلقَّ أي رد. فبادره (عبد القادر) قائلاً:

- لعله مازال نائماً.

- إنها الحادية عشر، لا أظن ذلك.

فُتِح الباب المقابل بغتة، وأطلت من ورائه سيدة خاطبتهما:

- أتبحثان عن أحد؟

- نعم سيدتي. ألا تعرفين إن كان (سعيد) بالداخل؟

- لقد رحل.

تبادل الصديقان النظرات في دهشة، "رحل؟ أين سيذهب؟ وكيف؟ ولماذا؟..."، انهالت على خاطريهما عشرات الأسئلة، بينما استطردت المرأة:

- بالأمس، جاء المشرف على العمارة، فتح الباب، وأخرج جميع محتويات الشقة. ولما سألته عن (سعيد) أخبرني أنه لن يعود إلى هذا المكان مجدداً.

ودعتهما السيدة ودخلت إلى بيتها. وازدادت دهشة (خالد) و(عبد القادر) واتضح صدق حدسهما بالأمس. لقد أخفى عنهما (سعيد) رغبته في الرحيل، أيكون نسي؟ أم تناسى؟ وأين سيجدانه الآن؟

نزلا الدرجات القليلة ببطء، وظلا طوال الطريق صامتَين، وسؤال يؤرقهما: "ترى أين ذهب (سعيد)؟

****

- توقفت السيارة السوداء الفخمة أمام باب الفيلا، ونزل منها رجل في عقده الخامس، قصير القامة، بارز البطن، ذو رأس دائري تفرقت في وسطه شعيرات قليلة، وتجمع شعر كثيف على الفوذين. صعد الدرجات المؤدية لمدخل الفيلا، ودخل دون استئذان، كأنه معتاد على الأمر. لم يكد يرى (سعيد) حتى أسرع نحوه في خطوات هي أقرب للعدو، خفض عينيه الصغيرتين، ومد يده قبل أن يصل وهو يقول:

- (بوشعيب) في خدمتكم سيدي.

صافحه (سعيد) في هدوء، واغتاظ من انحناءته المذلة، ثم بادره بهدوء:

- هل نذهب الآن؟

- السيارة بالخارج، يمكننا الذهاب.

- حسناً لنذهب.

خرجا معاً، وأسرع (بوشعيب) يفتح الباب الخلفي لسيده. ثم أمر السائق بالتحرك بعد أن جلس قربه. كان (سعيد) يسترق النظر لرفيقه، محاولاً تبين ملامحه أكثر، فواجهته قسمات صارمة، وعيون منتفخة دلالة على إدمان صاحبها للسهر.

وصلت السيارة إلى المنطقة الصناعية، حيث انتشرت العديد من المعامل والمصانع الضخمة، وأمام مبنى ضخم، توقفت السيارة، وأسرع حارس الباب لرفع الحاجز الحديدي. اصطف المستخدمون لتحية الرئيس الجديد، ولم تختلف حركاتهم وعباراتهم عن (بوشعيب)، الذي ظلّ طوال الوقت وراء سيده.

ولجا مكتباً فخماً، وترك (سعيد) جسده يغوص داخل المقعد الجلدي، عله يتخلص من بعض التوتر الذي انتابه. هالته الملفات الضخمة الموضوعة على جنبات المكتب، وشعر في لحظة بأنه غريب عن هذا العالم، هو الحاصل على إجازة في الحقوق، كيف يمكن أن يصبح بين ليلة وضحاها رجل أعمال، يدير معملاً بهذه الضخامة.

دعا (بوشعيب) للجلوس أمامه، وبادره:

- أريدك يا (بوشعيب) أن تعطيني نظرة شاملة عن المعمل. نشاطه، موارده، زبائنه، عماله ومستخدموه، وغير ذلك.

اعتدل (بوشعيب) في جلسته وتنحنح، ثم بدأ يلقي محاضرته بصوت غاب خفوته هذه المرة، وبدا قوياً، واضحاً.

****

-ها قد مر شهران على آخر لقاء لنا بـ(سعيد). لم نرَه منذ جنازة أمه. كم أتأسف على عهد صداقة ضاع في لحظة.

- لكل واحد ظروفه يا (خالد). غياب (سعيد) يشغل بالي، وأخشى أن يكون مكروهٌ قد أصابه.

- فيما مضى، كان يكفي أن نغيب عن بعضنا ليوم أو يومين، حتى يسعى كل واحد للبحث عن الآخر والسؤال عن حاله. ماذا تغير يا (عبد القادر)؟

- لا تقلق. سنجده إن شاء الله. في الحقيقة، أنا مشغول بأمر آخر. لقد توصلت برسالة من أختي تدعوني فيها للمجيء، بعد أن تدهورت صحة أبي، وباتوا يخشون عليه فعلاً.

-هل تعني أن مرضه خطير؟

- لم تخبرني بالتفاصيل. لكن لو هو مرضه القديم، فإني أتوجس من الأقدار.

- أتقصد القلب، إن...

_ قاطعه بأسف قائلاً: نعم إن قلبه ضعيف، وقد عانى كثيراً بسببه. ورغم نصائح الأطباء بالابتعاد عن الإجهاد والتوتر، إلا أنه لا يلتزم بها. فمازال

متمسكاً بدروسه الدعوية التي يلقيها في مسجد الحي، وغالباً ما يؤمُّ المصلين، ويسعى لأعمال الخير. أتدري، إنه محظوظ رغم ذلك؟

- لماذا؟

- رغم أن قلبه قد أصابه الوهن، إلا أن عشرات القلوب تكنُّ له الحب والاحترام، إنه يحيا بتلك القلوب.

- هكذا هم العظماء يا صديقي. يعيشون بحب الناس، ولولاه لماتوا حزناً وغيظاً من زمن لا يرحم.

تنهد (عبد القادر)، وتمتم بخشوع:

- اللّهُمَّ لا أسألك رد القضاء، ولكنّني أسألك اللطف فيه.

استمر يردد أدعية أخرى، فيما لزم (خالد) الصمت، مقاوماً رغبة قوية في التدخين، فرغم علم (عبد القادر) بنزوات صديقه، إلا أن ميثاق الاحترام الكبير بينهما، يمنع (خالد) من أن ينفث دخان سيجارته في وجه صديقه الذي لا يحتمل رائحتها الخانقة. فحاول تخفيف الضيق الذي انتابه بالكلام مع (عبد القادر)، فسأله:

- متى ستذهب إذاً؟

- سأطلب من رب العمل أن يمنحني ثلاثة أيام، وسأرى ردة فعله.

- كيف تتحمل ذلك العجوز؟ إن منظره ليشعرني بالاشمئزاز. يا للسخرية، من إجازة في الحقوق بتفوقٍ، إلى مكلف بالصندوق في محل تجاري.

- كانت أمنيتي أن أصبح محامياً، فإذا بي أغرق في عمليات الجمع والطرح والقسمة التي لا تنتهي. أحياناً أتحسر على يدي التي تخيلتها مراراً تعبر عن مرافعاتي داخل المحكمة، تشلها اليوم القطع النقدية والأوراق المالية فتدمن على حركات لا تتغير. (وأشار بيده في حركتين تبينان تسلم النقود وتسليمها)

ضحك (خالد) وقال:

- على الأقل، أنت تستمتع برؤية رزم المال.

- رغم ظروف عملي غير اللائقة، إلا أنني أحمد الله تعالى. قل لي يا (خالد)، لماذا لا تبحث عن عمل؟

- تعبت من البحث يا صديقي. كنت أحمل شهادتي الجامعية ظناً مني أنها ستفتح لي الأبواب المغلقة، فاتضح مع مرور الأيام أني كنت مخطئاً. الغريب أن بعض من قصدتهم، طلبوا مني مالاً للحصول على عمل. يا للسخافة، لو كنت أملك مالاً ما قصدتهم أصلاً.

- كيف تتدبر أحوالك إذاً؟

رنا (خالد) إلى السماء، وبدا الأسف في عينيه وهو يقول:

- كلما تذكرت أن أمي تعمل لتوفر لي لقمة العيش، إلا وشعرت بالخجل والأسى. منذ أن وطأت أقدامنا هذه المدينة، وذلك الملاك الطاهر يطرق الأبواب، ويمضغ الإهانات في صمت.

- لعن الله الفقر يا صديقي.

- هذا الزمن هو الملعون. لقد ماتت الرحمة في قلوب البشر. أين التآزر والتآخي؟ حين كنا ندرس، ملؤوا عقولنا بشعارات عن الوطنية وحب الوطن. لم نكن بحاجة لذلك، فحب الوطن يجري في دمائنا، لكن ما يغيظني هو قولهم إن الوطن لا ينسى أبناءَه. وها نحن مرميون على ثرى الوطن، تدوسنا أقدامهم بكل همجية ووحشية.

أذكر أني عشت تجربة انتخابات، وأذهلني خطاب مرشح الحي، ووعوده الكثيرة، وصدقته. ربما لأننا تعودنا على تصديق كل من يرتدي ربطة عنق ويقف وراء ميكروفون، وصدقه كثيرون غيري. أتدري ما الذي تغير بعد نجاحه؟

- أخبرني أنت.

-أصبحت بطنه أكثر بروزاً من ذي قبل، وتوردت خدوده بدماء الصحة ورغد العيش و ...

قاطعته ضحكة قصيرة من (عبد القادر) وهو يقول:

ـ " لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم". صدق الله العظيم

- إن السخرية يا (عبد القادر) هي أن نضع ثقتنا في أُمِّيٍّ جاهل لا يعرف حتى كتابة اسمه.

- لنأمل خيراً في الغد يا (خالد). فما زال في الدنيا أناس طيبون وشرفاء. تفاءل يا أخي وابعد عنك مشاعر الغيض والغضب.

- " لا يغير الله ما بقوم...". لم يتذكر (خالد) تتمة الآية، فقام صديقه بالمهمة، ثم أضاف مبتسماً.

- لو اغتنمت وقتك الفارغ في حفظ القرآن لهنأ قلبك، واستفدت في دنياك ولآخرتك.

- إني لا أعيش دنياي أصلاً. أحياناً أتمنى لو بقيت طفلاً، تضمني البراءة، وتسكنني السذاجة، فلا أهتمّ بما يحدث حولي، ولا أدقق في خبايا الأمور، أو أزعج نفسي بأفكار الكبار وهمومهم ومشاكلهم. أنام فلا تؤرقني الكوابيس، وأصحو لأفرغ طاقتي في اللعب والمرح. لهذا أحاول أن أمنح لطفولتي سمة الخلود. ستسألني كيف؟ وتعرف أني لا أستطيع أن أجيب، فاحترامي لك يمنعني من ذلك.

- لقد فهمت ما تقصده يا صديقي. لكن لحظة الانتشاء والسعادة التي يمنحها لك ذلك السم الزعاف لا تدوم، فكلما زال المفعول إلا وعدت لتعاستك.

- على الأقل لن أكون تعيساً طول الوقت.

- سأودعك الآن يا (خالد)، سأتوجه للمحل لأطلب الإذن من ربِّ العمل.

- حظاً سعيداً. أتمنى الشفاء لوالدك.

تعانقا في ودٍ ظاهرٍ وافترقا، كلٌّ في طريقة، ولكلٍّ هدفه.

- كأن الأضواء تحيط به من كل جانب، ها هي سماؤه تزهو بملايين النجوم البراقة، وتعلن ميلاداً جديداً لحياة سمتها الأمل والسعادة. السيارة الفارهة تضمه بين جنباتها، لا يتذكر متى تعلم السياقة، لكنه يسوق الآن ببراعة. كان كمن يكتشف المدينة لأول مرة. خفق قلبه في لحظة وهو يتذكر انحناءات العاملين والمستخدمين، وكلماتهم المليئة احتراماً وودّاً لدرجة الخنوع. شعر بأهميته، وهيبته أمامهم، واستغرب لذلك الشعور الذي تملكه في لحظة، شعور بالفخر، وبالتعالي، وتذكر كيف تعامل ببرودة مع استقبالهم، فقد خاطبهم بلهجة صارمة:

- التحقوا بأعمالكم، فالوقت أثمن من أن نضيعه في التحايا والكلمات الجوفاء.

فأحنوا رؤوسهم في استسلام وتوجهوا لأعمالهم. وبقي وحده، وأمامه سكرتيرته الحسناء، هذه بالذات تعامل معها بخشونة. لم يأبه لفتنتها، ولا لأناقتها المبالغ فيها، ولا لرقة كلامها وهي تدعوه لتوقيع بعض الأوراق، إذ خاطبها بنبرة ساخرة:

- لست هنا للتوقيع فقط أيتها الآنسة. عليَّ أن أعرف أولاً ماذا سأوقع.

فأحنت عينيها الجميلتين، وصمتت. وحين طلب منها الانصراف بحركة مستفزة من يده، شعر بأنها جُرِحت، لكنّه لم يهتمِمْ ولن يهتمَّ. لم يكن من النوع الذي تثيره النساء، لطالما سخر من أقرانه وآلامهم بعد تجارب حب فاشلة، ولطالما استهزأ بسعادتهم الوهمية كما يراها عند تجارب ناجحة. فكأن قلبه قطعة جليد، لا تعترف بالحب ولا بالمشاعر. ورغم ملامحه الهادئة غالباً، إلا أن في أعماقه تحيا صرامة وصلابة جمدت مشاعره وأحاسيسه. كيف يحب امرأة غير أمه؟ وهل يتصور امرأة أخرى تحل محلها؟ هذا لن يكون أبداً.

لكن، شيء ما كان يحدث بداخله، شعور غريب كان ينتابه في لحظات ويذيب قطعة الجليد في أحشائه، وكان يصارع كثيراً لإخفاء ذلك الأمر، وكلما رآها من جديد إلا واستسلم من جديد. فتاة جميلة، بشعر أسود طويل، وعينين بلون الكستناء، وخدود ملئت بدماء الحياة فأضفت جمالاً ساحراً على الوجه الدائري، وحين تبتسم الشفتان الجذابتان، تزيدها الغمازتان فتنة ورقة وبهاء. (نجاة)، ابنة الجيران، وفاتنة الحيّ. لم ينسَ كلام شبان الحيّ عنها، وتغزلهم بجمالها، وتهافتهم واحداً بعد الآخر للفوز بقلبها، ولن ينسى أيضاً كلما التقت نظراتهما على سلم العمارة، وذاك الشعور اللذيذ يدغدغ جسده وروحه. وحين سمع مرة من أحد الأصدقاء أن الحب الأول لأي فتاة يبدأ من ابن الجيران، لم يشك في ذلك، لكنه لم يخلق ليحب. ورغم ذلك، فقد تعرف على المرأة في صورة أخرى، كانت ليلة صيفية خانقة،

فخرج مع (خالد) ينشدان بعض النسمات قرب البحر، طال جلوسهما في الرمال التي احتفظت بدفئها رغم تأخر الوقت، وبين سحب الدخان ورائحة الحشيش، وشدة الحر، خطرت في ذهنهما فكرة، سرعان ما تحولت إلى رغبة. وكانت النهاية في حضن امرأتين في غرفة مظلمة حيث تباع الأجساد وتُشترى. راقت له التجربة، فكان كلما عاوده الحنين إلا وقصد الزقاق الضيق، وصعد الدرجات القليلة، ليرتمي في حضن امرأة.

لكن صورة (نجاة) ترفض أن تبتعد عن نظره، فقرر أن يزور حيه القديم غداً، ويقابل الفتاة التي تيقن اليوم أنه يريدها.

مع إشراقة يوم جديد، استقل (سعيد) سيارته، وتوجه نحو الحي البائس. استقبلته رائحة عفنة تنبعث من القنوات المكسورة، فشعر باشمئزاز، تلك الرائحة التي عاش معها لسنوات، أصبحت تزكم أنفه الآن. أخرج منديله، ووضعه على أنفه، ومضت السيارة تشق طريقها بين عشرات الأجساد المتعبة، بينما تجمع الأطفال ليتمتعوا بلمس السيارة ذات المنظر الخلاب، وأطلت العيون من الشرفات الضيقة، وجالت في الخواطر أسئلة عديدة: تُرى من الزائر؟

دبّت فجأة في العيون التائهة بفعل الحشيش حياة جديدة، فنفضت عنها وقع المخدر وهي تتطلع من المقهى لمشهد جال في أحلامها في لحظات الانتشاء، فأمام العمارة القديمة، توقفت السيارة، ونزل منها (سعيد). حاول أن يبدو هادئاً، لكنه لم يستطِع، فعدل من هندامه الأنيق، ورفع

رأسه للسماء بتعالٍ. دققت العيون النظر في الزائر، وكانت الدهشة كبيرة باكتشاف حقيقته. "إنّه سعيد.". ظنَّ البعض أنهم يحلمون، فيما ردَّدَ آخرون: "يخلق من الشبه أربعين"، بينما انزوت فئة قليلة في مكانها غير مبالية بالمشهد أمامها، ولسان حالها يقول: " ما دمت في المغرب، فلا تستغرب".

كثرت التأويلات، وانتشرت الشائعات في لمح البصر، وفي مدة لم تتجاوز بضعة دقائق، كان (سعيد) قد قلب الأمور رأساً على عقب داخل الحارة القديمة.

تقدم الحاج صاحب محل البقالة الوحيد بالحيّ من (سعيد)، بعد أن تخلص بسرعة من دهشته، وقال بود:

- أهلاً ولدي (سعيد). لقد طالت غيبتك، لعلّ المانع خير.

مد يده مصافحاً، فما كان من الآخر إلا أن رفع يديه ليشعل سيجارة وهو يقول بخشونة:

- ما أعرفه أن آبائي انتقلوا للدار الآخرة. فلمَ تناديني بولدي؟

صُدم الحاج لقسوة الجواب، وشعر (سعيد) أن الوقت قد حان ليرد الصاع صاعين لهذا الرجل. ألم يقف مراراً أمام محله يطلب خبزاً أو مصبرات على أن يدفع الثمن لاحقاً، فيكون رد هذا العجوز أن "الطلق ممنوع"؟ أو ليس هذا الرجل هو الذي مرغ وجهه في التراب يوم أخبر (نجاة) أنه وأمه يعيشان على علب السردين والزيتون الأسود؟

نزع (سعيد) نظارته السوداء، فلمع ذلك البريق المخيف في العينين العميقتين، واتجه نحو الحاج الذي بدا مكسور الجناح، وقال له:

- أتعرف لِم عدلت عن مصافحتك؟

قالها بصوت مرتفع حتى يسمعه الجميع. وبينما كان الحاج ينظر بدهشة نحو محدثه، أضاف هذا الأخير، بصوت أكثر ارتفاعاً:

- إني لا أحب أن تعلق بيدي رائحتك الكريهة.

"أين أنتِ يا (نجاة) لتري آكل السردين وحبات الزيتون الأسود وهو يفتح صفحات جديدة من كتاب القوة والمجد؟"

تركه في دهشته وانكساره، وتوجه نحو باب العمارة، بخطوات مدروسة، وبهدوء غريب.

بعث منظر الأزبال المتراكمة قرب الباب في نفسه مشاعر الاشمئزاز والغيض، وتعجب في قرارة نفسه كيف يعيش هؤلاء الناس وسط نفاياتهم. وسخر في أعماقه عندما تذكر أنه، وإلى عهد قريب، كان منهم. صعد الدرجات العشر الأولى، فوجد قبالته ثلاثة أبواب خشبية، بابان متقابلان، بينما انزوى الثالث في الوسط، وراءَه كان يعيش يوماً مع أمه. في حين سكن في الشقة الأخرى رجل لا يفارقها إلا للذهاب إلى المسجد، لا يكلم أحداً، ولا يعرف أحدٌ قصته. وإن تضاربت الشائعات حوله، إلا أن حياته ظلت سراً من الأسرار. أما الشقة المتبقية، فهي مقصده اليوم، حيث تعيش (لالة راضية)، منذ أن وعى على الدنيا، وهو يناديها بهذا الاسم، كانت جارة

طيبة، كثيراً ما زارت أمه قبل مرضها، وجلستا تلغطان بالحديث والضحكات الصافية، وكثيراً ما زارتها أيام مرضها، فكانت الوحيدة التي تدخل لغرفتها، وتجلس معها لساعات طوال.

كان يرتاح لهذه المرأة، ويكنُّ لها التقدير والاحترام، وإن لم يصرح بشعوره نحوها يوماً. فهي امرأة، والنساء في حياته نوعان: أمه التي سقته الحنان وملأت حياته بالأمل والأمان، أمه التي تستحق حبه واحترامه، أمه رمز الخير والوفاء وكل الصفات الطيبة. وكل النساء غيرها لا يؤتمن جانبهن أبداً.

طرق الباب في هدوء، وأتاه الصوت من الجهة المقابلة عالياً واضح النبرات:

- مَنْ؟

- قْرِيبْ! (يعني شخص مُقرَّب).

انتظر قليلاً، ثم فُتِح الباب، وأطلت من ورائه امرأة في عقدها السادس، تنم ملامحها عن جمال قديم، وإنْ احتفظت عيونها ببعضٍ من آثاره، عيون واسعة افتقدت للأهداب الطويلة واحتفظت ببعض البريق. غطت رأسها بوشاح أبيض أنيق، والتف جسدها داخل قفطان مائل للصفرة، جسد ممتلئ يميل إلى البدانة، لكنه بدا متناسقاً بعض الشيء مع قامتها الطويلة.

طال صمتها وهي تتأمل الواقف أمامها، وجرت في خاطرها صور وذكريات و.

- كيف حالك (لالة راضية)؟ ألن تدعيني للدخول؟

صحت من تأملاتها، وبدا طقم الأسنان ناصع البياض وهي تبتسم قائلة:

- مرحباً بك ولدي (سعيد). أُعذرني لأني لم أعرفك بسرعة، فقد تغيرت كثيراً.

أفسحت الطريق، فدخل (سعيد) في خطوات مدروسة، وجالت عيناه في أنحاء البيت، وللحظة حاول أن يقارن بينه وبين فيلته الفخمة، فكتم ضحكة كادت تنفلت من بين شفتيه.

دعته المرأة للجلوس، واستأذنته لتعد الشاي. لم ينبس ببنت شفة، وترك جسده يغوص في الأريكة الكبيرة، وبدأ يحدث نفسه: "الحق أن البيت رغم تواضعه، إلا أنه نظيف ومؤثث بطريقة جميلة وأنيقة. لا شك أن (نجاة) قد تركت مسحتها عليه". انتبه للوحة علقت على الحائط أمامه، حيث رجل عجوز يستجدي المارة وسط الشارع، فتعجب لهؤلاء الفقراء الذين ملأ الفقر عقولهم وقلوبهم، وهيمن على أذواقهم أيضاً. ماذا سيخسرون لو وضعوا لوحة لقصر فخم، أو لسيارة فاخرة أمامهم.

تقدمت (لالة راضية) حاملة صينية الشاي، وصحناً به قطع من الحلوى، ثم جلست أمام (سعيد) وقالت له:

- رحم الله أمك وأسكنها فسيح الجنان. سامحني يا ولدي لأني لم أزُرك يوم وفاتها، فقد كنت طريحة الفراش. ذلك السكري اللعين ينخر جسدي يوماً بعد يوم. كثيرون يظنون أني بصحة جيدة، وهم ينظرون لجسدي الممتلئ. لو يعرفون مقدار الألم الذي أعانيه، والإغماءات المفاجئة التي نغصت حياتي، لعلموا لحظتها أني أشبه فيلاً يُحتضر.

صمتت، وانتظرت من محدثها كلمة مواساة أو دعاء بالشفاء، ولكن تصرفه فاجأها، فقد اكتفى بارتشاف جرعات من كوبه، وهو يرنو بعينيه إلى السقف، فأحنت عينيها وصمتت.

طالت لحظة الصمت، فظنت المرأة أن (سعيد) تذكر أمه، فعادت غصة الحزن والفراق لتخنقه، ففكرت أن تغير الحديث علها تنسيه مرارة الفراق.

فلما همت بذلك، سبقها هو بالسؤال:

- أين (نجاة)؟

ارتاحت، فيمكنها الآن أن تغير دفة الحديث. وضعت كأسها، ورسمت ابتسامة حنونة على شفتيها وهي تقول:

- منذ مدة لم تلتقيا، أليس كذلك؟

- بلى. لقد ألهتنا مشاغل الحياة عن الواجب.

- لا عليك. أقدر ظروفك. (نجاة) يا ولدي بخير والحمد لله. وأشكر الله تعالى في كل وقت على السعادة التي هيأها لابنتي الوحيدة.

قاطعها بلهفة سائلاً: ماذا حدث؟

اتسعت ابتسامتها وهي تقول:

- لقد تزوجت. وزوجها رجل طيب، وأنت بلا شك تعرفه.

شعر بشيء يهزه من الأعماق، وسرت رعشة خفيفة في جسده. حاول أن يتماسك فلم يستطع، وبدا متوتراً وهو يفك عقدة ربطة عنقه قائلاً:

- من هو؟

- (المْعَلِّم مُحمد)، صاحب محل النجارة في أقصى الحي. إنه شاب متخلق، ومثابر في عمله. الحق أني لم أوافق في بداية الأمر، وذلك بسبب أمر يتعلق بعائلته، لأنني لم أكن أعرف عنه شيئاً. لكن بعد معرفتي بأنه يتيم الأبوين، وبعد تأكدي من سمعته الحسنة في الحي، وتميزه في عمله، ارتحت، ووافقت. كما أن (نجاة) لم ترفض، والحمد لله لم يخب ظننا فيه.

(نجاة) وافقت، من يصدق؟ أتكون الحمرة التي تسكن خدها كلما رأته مجرد خداع بصر؟ أتكون نظراتها إليه مجرد خيال صوَّرهُ عقله الحائر؟ وتزوجت بمن؟ بمتسول، فقير، بائس، حقير... كاد يطلق شتائمه بصوت عالٍ. لكنَّ منظراً استوقفه وزاد من توتره. فأمام الغرفة المقابلة له وقفت (نجاة). الشعر الأسود الطويل ما زال يحتفظ برونقه، والعينان بلون الكستناء زاد بريقهما، والقوام المتناسق زاد امتلاءً فأصبح رائعاً مثيراً. تقدمت نحوه بخطى وئيدة، ومدت يدها البضة بينما غطت الرموش السوداء الطويلة العيون الجميلة وهي تقول برقة:

- مرحباً (سعيد). رحم الله (مِّي نعيمة).

حتى "آمين" لم يستطع قولها، فقد مضى عقله لعالم آخر، وكأن سيوفاً تنهال عليه من كل جانب. كيف لهذه الفتنة وهذا الجمال الأخاذ أن يصيرا تحت رحمة يد خشنة قد ألفت الخشب والمسامير؟ كيف لهذا الجسد الناعم المثير أن يُلوَّث كل يوم بعرق يزكم الأنوف؟ كم يكره (المعْلم محمد)، يكره (نجاة) وأمها، يكره الحاج صاحب المحل، يكره الحي كله، هؤلاء البؤساء،

الفاقدون لنعم الحياة، الذين ألفوا الذباب وروائح النفايات، هؤلاء الهمج... شعر بأن شتائمه زادت هذا اليوم، فحاول أن يتماسك قبل أن ينفجر. رشف ما تبقى في كأسه، ولمح (نجاة) منشغلة بهاتفها، بينما انشغلت أمها بسبحتها تحرك عقدها في هدوء، ونظر لذلك العجوز في اللوحة، فشعر بنفسه أكثر بؤساً منه.

تمالك نفسه، ووقف قائلاً بصوت مختنق:

- شكراً على ضيافتكما، أستودعكما الله.

ظلت الأم جالسة كأنها لم تسمع قوله، بينما وقفت (نجاة) ومدت يدها مصافحة ومرددة كلمات الوداع. تمنى لو أنها لم تفعل، فقد أثارته اليد البضة الناعمة، وزادت من جراحه وآلامه. أحنى عينيه في استسلام، وتوجه نحو الباب، وفي الخارج، تنفس بقوة كأنه خرج للتو من غرفة غاز. أخرج سيجارة بعصبية واضحة، ولم يشعلها إلا بعد ثلاث محاولات ونزل الدرجات العشر بسرعة، بدت له المسافة بين باب العمارة وسيارته كأنها طريق طويل زرعت فيه رماح مسمومة، أحنى رأسه وأسرع نحو سيارته، وهو يشعر بنظرات الناس كطعنات تدمي جسده. فتح الباب، وارتمى على مقعده محاولاً استرجاع هدوئه. انطلقت السيارة، ووراءَها صياح الأطفال المنبهرين بفخامتها، بينما كانت بعض الألسن تنفث سموماً قاتلة، ومن بينهم الحاج الذي رفع يده للسماء قائلاً: " اللّٰهُمَّ أرني فيه قدرتك." قالها في خشوع، وبقلب ثارت فيه الدماء.

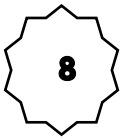

- لم يهتمِمْ للمناظر الجميلة التي تتهادى أمام عينيه رغم سرعة الحافلة، ولا لثرثرة جليسه الذي ما فتئ بين الفينة والأخرى ينتقل بين المواضيع المختلفة. فقد مضى عقله للأهم، وبدأت أسئلة عديدة تؤرقه: كيف سيجد والده؟ أتكون الرّوح قد عادت لبارئها وقضي الأمر؟ استغفر في سره، وبدأ يردد آيات من الذكر الحكيم علها تبعد نوازع الشؤم التي اجتاحته. وعاد لينشغل بالمناظر أمامه، حيث الجبال تعانق السهول في مشهد بديع، وبدت أشجار الأرز ككائن أسطوري يفرد أذرعه الكثيرة ليمنح الجمال والأمان والفتنة للربوع حوله، وتفتحت الورود في مشهد رائع، تزهو بألوانها، وتنشر العبق حولها، فكأنها تقول للبشر: "إن الجمال حولكم، ولكنكم فاقدون للبصر والبصيرة".

صحا من تأملاته على صوت جليسه وهو يبادره:

- أول مرة تزور المنطقة؟

- لا أعرف كم مررتُ بهذا الطريق، لكنها مرات عديدة على كل حال.

برقت عينا الرجل، وبدا في قمة الحماس وهو يقول:

- أنت ابن المنطقة إذاً. أنا أيضاً أنحدر من هذه المنطقة، وبالضبط من مدينة فاس، مدينة العلم والشرفاء، بركاتك مولاي إدريس.

فطن (عبد القادر) لكون محدثه مازال يؤمن ببركات الأولياء، وأمثاله كثيرون، يعتقدون في الخرافات والأساطير.

أضاف الرجل بنفس الحماس:

- من أية مدينة أنت؟

- من (وجْدة).

- (وجدة)، بوابة المغرب نحو الشرق، لقد زرتها مرة واحدة، وأعجبت بها، بركاتك سيدي يحيي.

كاد (عبد القادر) ينفجر في وجه محدثه، فتمالك نفسه، وبدأ يندب حظه السيّئ الذي جمعه برجل مازال يؤمن بالخرافات، ثم أغمض عينيه متظاهراً بالنوم، وتجاهل كلمات جليسه الذي فطن متأخراً أنه يحدث الهواء، فصمت عن مضضٍ، وهو يلعن حظه السيِّئ الذي جمعه برجل قليل الكلام، غريب الطباع.

لم يدر (عبد القادر) متى استغرق في النوم وهو يصحو على صوت عالي النبرة يعلن الوصول ويطلب من الركاب الاستعداد للنزول. مسح وجهه بيديه ليزيل بعضاً من آثار النوم، وانتبه لكون جليسه المزعج قد اختفى، فتذكر في لحظة أن محطته كانت (فاس).

كان الجو مشمساً، تتخلله بعض النسمات الباردة. عليه أن يقطع شارعين كبيرين، ثم بعض الأزقة، ليصل إلى البيت. فاستقل سيارة أجرة، واستسلم لغفوة قصيرة، حتى ناداه السائق برفق، ليخبره بالوصول.

آه، لو كانت هذه الأرض تنطق لحكت عن شقاوة الطفولة، وعن مغامرات الصبا. إن الجسد ليحن الآن لتربتها الندية. كانت أياماً جميلة بحق، لم تكن الحياة سوى لعب ونوم وأكل، فما بال الإنسان كلما تقدم في العمر إلا وازدادت همومه وفقد الإحساس بروعة الحياة.

الوقت ظهيرة، سكون غريب يطغى على الحي بأكمله. شعر ببعض الضيق والتوتر، ربما تصور في قرارة نفسه أنه سيجد أهله وجيرانه ورفاق الأمس يستقبلونه، لكنه تذكر أنه لم يخبر أحداً بقدومه. تقدم بخطى وئيدة نحو بيتٍ من طابقٍ واحدٍ، وقرع الباب الخشبي بهدوء. فتح الباب، فظهر من ورائه طفل، ما إن رأى الطارق حتى ارتمى بين ذراعيه في حب وشوق، وانقض على حقيبته يجرها للداخل وهو يصرخ:

- عبد القادر... أخي عبد القادر.

أطلقت الأم زغرودة عذبة فرحة بقدوم فلذة كبدها، وابنها الأكبر، واندفعت أخته تعانقه في شوق، فقد اشتاقت لأخيها المحبوب بالفعل. كان كمن خرج لتوه من ميدان سباق، عرق غزير يملأ جسده، ويبعث في نفسه قشعريرة باردة. لكن لهفته، والحب الساكن في أعماقه لأسرته، جعله يتجاهل إحساسه ذاك. فارتمى في حضن أمه، وقبل رأسها في حب، وترك يدها تعبث بشعره، كما دأبت على ذلك منذ صغره، وهي لا تدري أتسأله عن حاله وأحواله، أم تجفف تلك الدموع المنهمرة من عينين هدهما الشوق والحنين لابن غائب.

وفي لحظة، تساءل (عبد القادر) في لهفة مشوبة بالقلق:

- أين الحاج؟

أشارت الأم بيدها إلى غرفة مقابلة، فاندفع نحوها، وفتح الباب بيد مرتعشة. صمت مطبق يسود المكان ويزيد من توتره وقلقه، انتبه للجسد النحيل المستلقي على السرير، فاقترب منه بهدوء، محاولاً ألا يصدر صوتاً يزعج النائم أو يوقظه من سباته. ورنا للوجه الشاحب، فأحس بدمعة ساخنة تبلل خده. الشيخ الفاضل، الرجل المؤمن الورع، يسقط ضحية المرض. تذكر آخر لقاء جمعهما، وتذكر أكثر وجهه الأبيض المكتنز، ولحيته الكثة البيضاء، وعينيه المشعتين ببريق الإيمان، ولسانه الذي يلهج دوماً بالذكر والتسبيح في خشوع. والآن؟

غابت نضارة الوجه وحمرة الدماء فيه، وظهرت هالة سوداء أسفل العيون البراقة، بسبب السهر والألم، وعلت ملامح الرجل صفرة المرض وآثار حدته. لم يتبقَّ سوى اللحية البيضاء الكثة، فكأنها رداء حريري يبعث الدفء ويخفف وطأة الجراح.

تركه نائماً وخرج بنفس الهدوء الذي دخل به. استقبلته أمه بوجه بشوش، محاولة أن تخفف عنه وقع رؤيته لأبيه في تلك الحال، لكنه بادرها بصوت حزين:

- ماذا حدث له؟

ارتمت الأم على أقرب مقعد، وخرجت كلماتها بطيئة:

- لقد ظلّ طوال عمره يؤمن بالقضاء والقدر، ولطالما سخر من أولئك الذين يتحدثون عن المفاجآت والصدف، فبالنسبة إليه، ما يحدث لنا خلال حياتنا هو أمر مقدر ومكتوب.

كان يوم جمعة، استحمَّ وارتدى ملابسه ليتوجه نحو المسجد مبكراً كعادته، وعاد ليتناول غداءَه ويستلقي قليلاً، لم يكن يشعر بأي ألم أو ضيق أو تعب، بل بالعكس، كان أوفر نشاطاً وأكثر حركة. ضحك كثيراً مع (أحمد)، وتبادل حديثاً طويلاً مع (فاطمة)، ولم ينسَ أن يغمرك بدعواته، متمنياً لك النجاح والتوفيق. لكن...

سكتت قليلاً، بعد أن غمرت الدموع عينيها، وبذلت مجهوداً مضاعفاً لتكمل الحديث:

- طال نومه على غير العادة، فطلبت من أخيك أن يوقظه، حتى لا تفوته صلاة العصر، لكنه لم يستجب للنداء، فتوجهت نحو الغرفة وأنا أناديه: " يا حاج. لقد اقترب موعد الأذان."، لكنّني فوجئت بردة فعله، فقد ظل جامداً، دون أن تصدر عنه حركة. اقتربتُ أكثر منه، فارتعبتُ من مسحة الشحوب التي كست وجهه، وصرخت منادية أختك، التي تملكها الرعب، وهي ترى المنظر القاسي...

لم تتركها شهقات مفاجئة لتكمل الحديث، فاستسلمت لنوبة بكاء حادة، و(عبد القادر) يحاول تهدئتها. أردفت بصعوبة:

- لولا جارنا (السي إبراهيم) لتطور الأمر لما هو أخطر. لقد حمله في سيارته للمستشفى، وهناك تم إسعافه، واتضح تعرضه لنوبة قلبية كادت تودي بحياته. وأخبرنا الطبيب أن قلبه لم يعد يتحمل الكثير من الجهد ولا من الانفعال، وإلا ستكون العواقب وخيمة. لقد تصرف أهل الحي بلباقة، فمنهم من دفع مصاريف المستشفى، ومنهم من تكلف بشراء الأدوية، وكثيرون قدموا لزيارته والاطمئنان عليه. طيبوبته وورعه وسماحته، جعلت كل الناس يحبونه.

"منذ متى لم تبكِ يا (عبد القادر)؟ منذ مدة طويلة بلا شك، فكأن الدموع الدفينة في أعماقي تنفجر الآن دفعة واحدة، دموع لا أملك القدرة على إيقافها ولا كبح جماحها. والدي مريض، وأمي وأختي تفتقدان لرجل يعينهما على مصاعب الحياة، وتصرف أهل الحي الرائع يزيد من تأثري."

صحا من تأملاته، ووقع حزنه، على صوت أمه وهي تقول:

- في لحظة، ظننت أن الأفراح قد هجرت هذا البيت للأبد، لكن مجيئك اليوم، بدد هذا الشعور السخيف. لن تتصور مقدار فرحتي بعودتك ابني الحبيب.

قبّل رأسها من جديد، وعانقها بقوة ليرتوي من نهر الحنان الذي لا ينضب.

وقدمت أخته تحمل صينية الشاي، فجلست أمامهما، وقالت مبتسمة:

- أما أنا فقد ظننت أنك لن تعود أبداً، وأن حسناء من (الدار البيضاء) قد أخذتك منا، واختطفت قلبك وعقلك معاً.

هكذا أخته على الدوام، منشرحة، بشوشة، وروح الدعابة تجري في عروقها. كانت طويلة، ذات شعر أشقر ناعم، ووجه أبيض، صُبِغت عيناها بلون الأشجار، فبدت نظراتها فاتنة ومثيرة، لكنها تشبعت بجو أسرتها، فكانت لمسات الأب التقي والورع، واضحة في تصرفاتها مع الغرباء، لم تكن من النوع الذي يسمح للآخرين بتجاوز الحدود، ولا من اللواتي يتعمدن إثارة المشاعر، وإبراز المفاتن أمام الآخرين. بل كانت تفرض على الجميع احترامها، لأنها تحترم نفسها أكثر.

أجابها بابتسامة أوسع:

- الحق أني أيضاً تخيلتك عروساً، بل وأماً. لست أدري أين اختفت عيون الرجال حتى يغيب عنها سحرك أيتها الحسناء.

أحنت عينيها في خجل، وضحكت الأم فبدا الشبه واضحاً بينها وبين ابنتها، هي لحظات الفرح تظهر الجمال في أروع صوره. وطال الحديث، مع كؤوس الشاي المنعنع، فتحدث (عبد القادر) عن ظروف العمل، وعن الغربة والحنين الدائم للأسرة الحبيبة، وعن رفاقه الثلاثة. وساد صمت رهيب، بعد أن أخبرهم أنه لن يقضي معهم سوى يومين، فظروف العمل لا تسمح له بالتغيب كثيراً. فعادت الأم لحزنها ولسان حالها يقول: "يا فرحة ما تمت"، وتجلى الأسى على وجه أخته وهي تعاتبه:

- تمنيت أن تبقى معنا للأبد. نحتاج إليك أكثر من أي وقت مضى.

هو أيضاً يحتاج إليهم، لكنَّ بقاءَه يعني فقدانه لعمله، ومصدر رزقه، والذي يمكنه من توفير بعض المال لأسرته. فقرر أن يغير دفة الحديث وهو ينظر نحو أخيه الصغير قائلاً:

- أنسيتم (أحمد)، إنه بألف رجل. أليس كذلك يا بطل؟

ضمَّ (أحمد) قبضته الصغيرة في قوة، وشمّر عن ذراعه النحيلة ليبرز عضلات لم يكتمل نموها بعد، وصرخ في حماس:

- بل أنا أقوى الرجال.

ضحك (عبد القادر)، واكتفت الأم وابنتها بابتسامة. ترى لمَ نربط دوماً الرجولة بقوة الجسد؟

****

- "أحتاج لامرأة".

أطلقها صرخة مدوية في أعماقه، وأعادها للمرة الثانية، بصوتٍ عالٍ هذه المرة، فمالت به السيارة، بعد أن تراخت قبضته على المقود، لكنه تدارك الأمر بسرعة، وتحكم في عربته من جديد. شعر بالدماء تغلي بداخله وهو يتذكر الأحداث الماضية، لم يستسغ شعور الانكسار الذي تملكه قبل لحظات، ربما، في الأمس القريب، لم يكن ليأبه للأمر، لكونه ألف الشقاء والانكسارات والحرمان. لكن، وبعد زيارته للمعمل، ومع نظرات العمال والمستخدمين، وتهافتهم نحوه يطلبون وده، ومع الاحترام المبالغ فيه لشخصه، لم يعدْ يرضى بأن يعامل بـأقل من ذلك، بعدما استشعر هيبته ونفوذه وأهميته.

لكن امرأة واحدة حطمت شعوره ذاك، امرأة واحدة حطمت غروره وكبرياءَه. ردد في نفسه: "كم أكره النساء."، وعاد في اللحظة نفسها ليعترف بحاجته لامرأة. يريد أن ينسى ما حصل، ولن يستطيع نسيان الأمر سوى في حضن امرأة أخرى. لكنه لم يألفْ أن يبحث عن النساء بمفرده، كان رفيق دربه (خالد) هو من يتكلف بالمهمة غالباً، لكن أين سيجد (خالد) الآن؟

وفي قمة توتره، وتشتت أفكاره، تراءت أمام عينيه صورة رجل، لم يدر لم تذكر الشيطان، لكنه يحتاج لشيطان بالفعل ليحقق رغباته المجنونة. فأخذ هاتفه، واتصل بـ(بوشعيب). فأتاه الصوت من الجانب الآخر خافتاً، ذا إيقاع غريب، يحيل على الذل والمهانة. أخبره بضرورة اللقاء، وحدد المكان، وبعد نصف ساعة، كان (بوشعيب) يجلس قربه في السيارة.

ساد صمت مطبق للحظات، وكان (سعيد) يسترق النظر، بين الفينة والأخرى، لمرافقه، فيلمح طيف ابتسامة على شفتيه الغليظتين، كأنما يسخر من سيده الذي يتعذب بسبب امرأة. استفزته الفكرة، وفكر أن يحطم رأس الرجل ووجهه الذميم، لكنه اقتنع في قرارة نفسه، أنه يحتاج إليه فعلاً. فبادره قائلاً:

- هل تألف السهر يا (بوشعيب)؟

اتسعت ابتسامة (بوشعيب)، وبدا كمن كان ينتظر ذلك السؤال بالذات، وأجاب بهدوء:

- لقد نسجت مع الليل علاقة محبة يا سيدي، وطردت النوم من قاموسي، ومن ناموس حياتي. فأنا لا أنام إلا لساعتين أو ثلاث. نهاري أخصصه للعمل وهو الأهم بالنسبة إلي، أما الليل... وغمز بعينه في حركة مقصودة، ثم ضحك ضحكة قصيرة، فظهرت أسنانه الصفراء، وزادت ذمامته، فأشاح (سعيد) بوجهه بعيداً، وسأله من جديد:

- أين تقضي سهراتك؟

لم يكن (بوشعيب) غبياً ليغيب عنه المغزى من أسئلة سيده، فما كان منه إلا أن اعتدل في جلسته، وغير من لكنة حديثه، فبدا كمن يخاطب صديقاً مقرباً:

- اسمع يا سيدي. إن كنت تريد قضاء ليلة ممتعة، فعندي المكان الملائم. وثق بي، لن تندم أبداً.

لم يجب (سعيد)، وترك جليسه يرسم مسار الطريق المؤدي إلى الجنة كما سماها، وإن ظلت صورة (نجاة) تؤرق عقله.

- توقفت السيارة أمام عمارة كبيرة وسط حيٍّ راقٍ، ووضعت لها مكاناً مع سيارات فخمة أخرى اصطفت أمام باب العمارة الزجاجي الفخم. تقدم شاب بسرعة نحو (بوشعيب)، وتبين أنه يعرفه، فطلب منه الاعتناء بالسيارة لحين رجوعهما. تقدم (بوشعيب) نحو المدخل الواسع للعمارة، وتبعه (سعيد).

فتح البواب الباب الزجاجي، وحيا الداخلين باحترام مبالغ فيه، ثم استقلا مصعداً حتى الطابق الرابع، فتوقفا أمام شقة من الشقق الثلاث المكونة للطابق. دق(بوشعيب) جرس الباب بطريقة متفق عليها، وأتى الصوت من الجهة الأخرى محملاً بعذوبة ورقة:

- من؟

رد (بوشعيب) بلهفة:

- أنا، (شعيبُو).

أثار الاسم الجديد (سعيد)، الذي ابتسم رغماً عنه وهو يرى حركات (بوشعيب) الطفولية، وانشغل أكثر بالتأمل في الرواق الخارجي للشقق، والذي فرش برخام أبيض من النوع الغالي، وتجلت الفخامة في مختلف تفاصيله. "فيما مضى، كنت تجد مبتغاك في غرف بئيسة، ورائحة العرق والبصل تزكم أنفك. واليوم..."

فُتح الباب عن وجه غطته المساحيق، وفاح عطر أخاذ ليغمر أنفه، ويبعث في داخله حرارة ونشوة، وبرزت مفاتن الجسد من وراء ثوب شفاف. فانحنى (بوشعيب) يقبل يد المرأة، ثم همس في أذنها بكلمات، فاتسعت ابتسامتها وهي ترنو لـ(سعيد) بنظرات مثيرة، تحمل كل معاني الإغراء.

دلفا إلى الداخل، فكان المشهد أكثر إثارة، عشرات الأجساد الفاتنة كأنها تتبارى في مسابقة ملكة الجمال، وجوه سمراء وبيضاء، وعيون اختلفت ألوانها فكأنك في بستان يزهو بورود مختلفة الألوان وأزكى الروائح. وبين آيات الحسن هاته، كان هناك رجال، أصغرهم في العقد الخامس من عمره على الأرجح. استرخت أجسادهم على المقاعد الجلدية الوثيرة، واصطفت أمامهم قنينات من مختلف الأنواع، فاختلطت رائحة الشراب برائحة العطر وبرائحة العرق الآدمي مع رائحة دخان السجائر، لتكون مزيجاً غريباً، زادَ من نشوة (سعيد)، ومن فورة الدماء في أعماقه.

بادل (بوشعيب) الجالسين التحية، ودعا سيده للتقدم نحو أريكة توسطت القاعة، وهمس في أذنه:

- تفضل يا سيدي. مرحباً بك.

جلس، وحاول أن يبعد التوتر الذي انتابه فجأة، فبدأ يقوم بحركات إيقاعية بيديه محاولاً مسايرة الموسيقى التي ارتفع صخبها، وتمايلت الأجساد المثيرة في حركات زادت من استثارته. وتوقفت الموسيقى بغتة، وتقدمت تلك المرأة التي فتحت الباب سلفاً، لتتوسط القاعة الفسيحة، وبابتسامة مثيرة خاطبت الحاضرين:

- يسعدني أن أقدم لكم ضيفاً جديداً، سيضفي نكهة خاصة على مجلسنا الرائع. أقدم لكم (السيد سعيد)، صاحب المعمل الكبير للنسيج، والرفيع الأصل والنسب.

تعالت تصفيقات السكارى، وضحكات الحسناوات. بينما ارتمى عقله من جديد في بحر الشك والريبة. أتكون كلماتها تجريحاً أكثر منه تشريفاً؟ وتذكر زملاءَه في المدرسة، وضحكاتهم الكتومة كلما تحدث عن أبيه. وعادت كلماتها لتزيد من شكوكه وريبته، "رفيع الأصل والنسب... ترى، ماذا تقصد؟"

نادى (بوشعيب) بحركة برأسه، فتقدم الأخير وقد احمر وجهه بفعل الإفراط في الشرب. دعاه للجلوس بقربه، وسأله:

- أشعر بأنني غريب عن هذا المكان، ربما لم أعتد بعد على المنظر. قل لي يا (بوشعيب) من هؤلاء؟

وأشار إلى الرجال الخمسة الذين انتشروا في القاعة. فاعتدل (بوشعيب) في جلسته، كعادته كلما أراد أن يتحدث عن شيء مهم، وقال:

- الرجل ذو الجلباب الأبيض هو الحاج (حسن)، صاحب مخابز الأمل المشهورة، لقد كون ثروة كبيرة باحتكاره صناعة الخبز والحلويات. لكن حياته غريبة، فهو بالنهار رجل التقوى والورع، وبالليل، يلطخ أحمر الشفاه من شفتيّ عاهرة شامة الصلاة على جبهته.

توجه بصر (سعيد) نحو الحاج الذي انضم لحلبة الرقص، وترك جسده يتمايل في وضع مقزز. وأضاف (بوشعيب):

- أما ذلك البدين، فهو يملك مقاهي ومحلات وسلسلة مطاعم، ويحتكر أسواق السمك بالمدينة. وذلك الذي بجانبه هو إطار كبير في إدارة عليا، هو لا يصل لثروة الحاج ولا لرفيقه، لكنه يملك السلطة، لهذا يبديان له الود والاحترام.

ارتشف (بوشعيب) جرعات متتالية من كأسه، وتجشأ في قوة قبل أن يضيف:

- أما الرجل الأنيق والجالس في هدوء مع تلك الفتاة الصغيرة، فهو غريب عن المدينة، يملك شركة للتصدير في طنجة، وغالباً ما يزور الدار البيضاء لارتباط أعماله بشركات هنا. إنه لا يجد حرجاً في دفع ما لا يخطر على بال من أجل قضاء ليلة مع فتاة كتلك.

وغمز (بوشعيب) بعينه في خسة، ففهم (سعيد) أن السيد الأنيق والمحترم يعشق الأجساد الصغيرة لدرجة الجنون. وفي لحظة تساءل في نفسه: "وماذا يروقني في النساء؟"، حاول أن يحدد معايير خاصة، لكن صورة (نجاة) عادت لتشغل باله، وتعيد إحساسه بالتوتر والانفعال. فارتشف قليلاً من كأسه، لعل نار الشراب تطفئ النار المشتعلة بداخله. وتابع (بوشعيب) بعد أن التقط أنفاسه المتقطعة من شدة الشرب:

- لم يتبقَّ لنا سوى (السي فؤاد)، في عقده السادس، لكنه ما يزال يحتفظ بوسامة الشباب وعنفوانه. يملك محلات لبيع المجوهرات في مدن مختلفة، فلا عجب أن تلتف حوله النساء في كل وقت وحين، طمعاً في هداياه الثمينة التي يغدقها عليهن كلما تملكته الثمالة.

أي مكانة يحظى بها هو؟ ليس عجوزاً ولا ذميماً، بل هو في قمة شبابه وقوته وجاذبيته، وليس أقل منهم شأناً، فهو يملك الكثير، وربما أكثر منهم. حاول أن يبعد عن ذهنه الأفكار الغريبة التي ما فتئت تؤرق مضجعه، فمال ببصره نحو الأجساد المثيرة، والوجوه البراقة، يبحث عن امرأة تنسيه همومه وخيبة أمله، لكنه احتار وعجز عن الاختيار، وشعر بأنه مازال يحتاج لبعض الوقت حتى يفرض وجوده في المكان، فلا حرج إذاً أن يستعين بـ(بوشعيب) من جديد، والذي ما إن ناداه بإشارة من يده، حتى تقدم بخطوات مترنحة، بعد أن أفرط في الشرب. وبلسان ثقيل، تكلم (بوشعيب):

- نعم، سيدي (سعيد).

- من ستكون مرافقتي هذه الليلة؟
- ما عليك سوى الاختيار سيدي.
- أعتمد على ذوقك.

ضحك (بوشعيب)، وسرعان ما تحولت ضحكته إلى قهقهة صاخبة، فظهرت أسنانه الصفراء، وغمرت رائحة الشراب أنف (سعيد)، الذي كظم غيظه وغضبه، وإن رمق محدثه بنظرة حادة. فاعتدل (بوشعيب) في جلسته، وتنحنح بقوة، وبدا في قمة الاتزان وهو يخاطب سيده:

- هنا يا سيدي تباع الأجساد، ومن يدفع أكثر، ينال الأفضل. وبين هؤلاء النسوة والفتيات، هناك من تبحث فقط عن النشوة ولا يهمها المال، لأنها تملك منه الكثير. نعم يا سيدي، زوجات رجال أعمال كبار، لم يجدن مبتغاهن في أحضان أزواجهن، فقدمن إلى هذا المكان يبحثن عن نوع آخر من الرجال، يملك المال نعم، ومعه فحولة تروي أجسادهن المتعطشة. أترى تلك الشقراء الجميلة، إنها تملك فيلا فخمة تطل على البحر، وزوجها غالباً ما يسافر خارج الوطن لظروف عمله. تعرفت عليها (الحاجة) صدفة، ففتحت لها أبواب بيتها.

"أهكذا يعيش بعض الأغنياء؟ أوراء السيارات الفخمة والقصور والوجوه البراقة والغرور الزائد، تعشعش جرثومة خبيثة تضرب الأخلاق بعرض الحائط؟ أين ميثاق الزوجية الذي يموت كل ليلة بين أحضان واحد من

هؤلاء الرجال؟ أين الكرامة وعزة النفس التي تذوب مع عرقهم الساخن؟ من قال إنّ الأغنياء سعداء؟"

وسأل (بوشعيب) باهتمام:

- من تكون الحاجة؟

ابتسم (بوشعيب) ابتسامة بلهاء كأنما يسخر من غباء سيده، وقال بحماس:

- إننا ننعم في ضيافتها الآن، فهي مالكة البيت، هل تتذكر المرأة التي فتحت الباب.

"لا تندهش يا (سعيد)، الحاج يرقص ويميل بخصره، والحاجة تحترف القوادة، والحاج في الحي فقدَ إنسانيته من أجل المال". أيقظه صوت (بوشعيب) من تأملاته، وهو يسأله بمكر:

- من تختار يا سيدي؟

- من يختار؟ أيختار باغية تبيع جسدها ما دام يستطيع أن يدفع؟ أم يختار جسداً بضاً ما زال في بداية الطريق؟ أيختار المرأة الغنية؟ لم يعرف مصدر ذلك الشعور الغريب الذي كان يدفعه نحوها، نحو الشقراء الجميلة، ناداه صوت من بعيد: "إنها متزوجة"، لم يأبه لنداء الضمير، وارتسمت على شفتيه ابتسامة غامضة، وبرقت عيناه العميقتان وهو يشير بهما نحو الحسناء الشقراء. تردد (بوشعيب) للحظة، ربما فاجأه اختيار سيده، لكنه سرعان ما نفذ الأمر، وتوجه نحو السيدة وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ماكرة. وضحك الشيطان كثيراً تلك الليلة.

-" مْهمُومَة هادْ الدّْنْيا مْهمُومَة مْهمُومَة يا خُويي مهمُومة"

كان يدندن بصوتٍ خافتٍ، ويحرك أنامله محاولاً مسايرة الإيقاع، وقد أخذته كلمات الأغنية الشهيرة لمجموعة "ناس الغيوان" لعالم بعيد، وسرعان ما أعادته لواقعه، الذي لم يكن بعيداً عن الهموم على أي حال. السيجارة بين شفتيه، بالكاد تظهر بعد أن ضاع نصفها الأبيض ولكنه اعتاد أن يحتفظ بالجزء الأصفر للحظات، عادة غريبة، لا يتذكر من علمها له، ولا متى تعلمها. قطع الزقاق الضيق، يبدو البيت قريباً، وكلما اقترب منه إلا وثارت نبضات قلبه، فقد سئم المناظر البئيسة التي تسود المكان، ولم يعد قادراً على تحمل رؤية أمه المريضة، والتي تظل طوال الليل تتأوه وتتألم دون أن يجد في نفسه القدرة على كبح جماح آلامها، عجزه يقتله، يخنقه، يزيد من مشاعر الإحباط بداخله. توقف ليشعل سيجارة أخرى، ولسوء حظه، لم يكن بها الجزء الأصفر الذي يتلذذ به. استند على جدار، وعادت صورة أمه لتطغى عليه، لم تعد تستطيع العمل بعد أن اشتدت عليها وطأة المرض. منذ قدومهما إلى المدينة، وأمه تجوب البيوت لتضمن لهما لقمة العيش، تعمل حتى وقت متأخر، وتعود ببعض الدراهم، وأحياناً تجدُ يداً حنونة

تمنحها الأكل وبعض الملابس التي سترت جسده. أما هو، فلا يتذكر بالضبط كم من مهنة زاول حتى الآن، ولكنه يتذكر جيداً، أن أطول فترة قضاها في عمل تعدت شهراً فقط. كان ذا طبع حاد، شخصية حفر فيها الزمن الكثير من العقد، يثور عند كل كلمة جارحة، أو لمجرد نظرة لم ترُق له، فكيف له أن يتحمل غطرسة المدير، أو صفاقة الزبائن. واليوم، هو بلا عمل، يستند الجدران، حتى إذا تملكه التعب، دخل للبيت ليستلقي باحثاً عن بعض الراحة التي لا يجدها غالباً.

دفع بقدميه إلى الأمام متوجهاً نحو بيته، فاستوقفته عبارة كتبت بخط كبير على جدار: "البابُّور يا مُون أمُور." "المركب حبيبي"، كانت مطلع أغنية شهيرة، يتغنى بها الشباب الحالم بالهجرة إلى الضفة الأخرى، بحثاً عن مستقبل أفضل. ذكرته العبارة بحدثٍ قديمٍ، كان في ريعان شبابه، تسكنه فورة الشباب، ويطغى على سلوكه الاندفاع والتهور، يومها قرر أن يهاجر مع شبان آخرين، لكنه افتقد الشجاعة لما وقف أمام البحر، كان يخاف من البحر، منذ أن حضر لغرق صديق طفولته في بحيرة هناك بمسقط الرأس، من ساعتها تولد بداخله خوف مرضيّ من الماء، ولم يتجرأ يوماً على السباحة. فعاد أدراجه خائباً، وزاد وقع خيبته عندما توصل بعد مرور وقتٍ طويلٍ، برسالة من رفيق مغامرته التي لم تكتمل، يخبره فيها أنه وجد عملاً محترماً، وأنه يعيش في أفضل حال. لحظتها، تساءل في غضب: لماذا لا

أكون مثله؟ وندب حظه السيّئ الذي فرض عليه أن يعيش دوماً في الشقاء.

وصل للبيت، ففتح الباب بهدوء، وما إن دخل، حتى سمع أمه تناديه:

- (خالد)، تعال يا بني.

دخل إلى الغرفة الصغيرة، حيث استلقت الأم في تعب، وعلا وجهها شحوب المرض والألم. جلس قربها، وأحاط ذراعه حولها بحنان وهو يسألها:

- هل تشعرين بتحسن؟

مدت يداً مرتعشة بارزة العروق، وأخذت تمسح شعره في حنو واضح، وقالت بصوتٍ واهنٍ:

- لقد تعبت يا ولدي، آن للجسد أن يستريح بعد طول عناء. لا أعلم كم تبقى لي من وقت للعيش، لكنّني أشعر باقتراب الأجل. ما أتمناه، وأدعو الله عز وجل أن يحققه لي، هو رؤيتك سعيداً، وقد نجحت في حياتك، وحققت أحلامك. آنذاك سأغادر وأنا مرتاحة. ابحث عن عمل يا (خالد)، أي عمل. وانسَ عزة نفسك قليلاً، فلطالما تنازلت عن كرامتي لأجل كسرة خبز. أنت متعلم، وذكي، وستجد عملاً ما، فقط عليك أن تبحث، وتأخذ الأمر بجدية. أرجوك يا بني، حقق لي هذه الأمنية.

تأثر بكلمات أمه، وزاد تأثره لما رأى دموعاً ترقرقت في عينيها المتعبتين، فأمسك يدها المرتعشة، وقبلها في حبٍّ، وهو يقول:

- حسناً يا أماه. غداً سأبحث عن عمل، وأعدك أنني لن أعود إلا ومعي خبر سار سيسعدك.

تراءى طيف ابتسامة على شفتيها الذابلتين، فشعر بفرح مفاجئ، فقد مرت فترة طويلة دون أن يراها تبتسم.

****

- طبع قبلة على اليد الباردة، ورنا للوجه الشاحب فلم يستطِع أن يمنع دمعة انسابت على خده، والتفت ليجد أمه ترمقه بعيون دامعة.

"ما هذا يا (عبد القادر)؟ منذ أن أتيت لم تجلب سوى الحزن والأسى لهذا البيت؟ استقبلتك أمك وهي في قمة الفرح واللهفة، وتتركها الآن أسيرة الدموع والكآبة. ما أقسى قلبك."، تنازعته أفكاره وهواجس نفسه، وشعر للحظة بأنه أتعس إنسان في الوجود، وعاد ليستغفر ربه، فلم يكن ليضعف أمام مشاكل الحياة ومطباتها، هو المؤمن بقدر الله. فاستغفر من جديد، واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم. وتوجه ليجمع ملابسه ويوظب حقيبته استعداداً للسفر، فقد حان موعد العودة.

فوجئ بأن أخته قامت بالمطلوب، ووقفت أمامه وقد ارتسمت على شفاهها ابتسامة جذابة، فانتابه فرحٌ مفاجئ، وردد في نفسه: "هذه الفتاة تملك قدرة كبيرة على مداواة الأحزان."، تقدم نحوها، وقد علت وجهه مسحة من الحزن، فأطلقت قنبلتها:

- لا تُبدِ الحزن والأسى على فراقي، لأنني سأرافقك.

ظنّ أنها تطلق دعابة من دعاباتها لتخفف من وقع الفراق عليهما، لكنها بدت جادة في كلامها.

لا. لا يمكن أن يوافق على هذا القرار، فأخته هي عماد البيت بعد رحيله، من سيهتم بالأب المريض، من سيملأ البيت بالضحكات الصافية، من سيرعى تلك الورود المنتشرة في مزهريات في أرجاء البيت، ومن سيساعد (أحمد) في دروسه ودراسته، ومن سيساعد الأم في واجبات البيت واحتياجات الأسرة. لن يتصور للحظة أنها ستترك البيت إلا في حالة واحدة، زواجها. وآنذاك سيكون مضطراً للعودة ليهتم بأسرته. لن يهتم لضياع العمل ساعتها، فمن المؤكد أنَّ سمعة الأب ومكانته في قلوب الكثيرين ستفتحان له بعض الأبواب المغلقة، أولم يدعُه يوماً للبقاء بعد أنه وجد له عملاً، لكنه رفض، ولا يدري حقيقة لمَ رفض العرض المغري؟ شيء ما دفعه للبقاء في الدار البيضاء، أهم رفاقه والألفة التي جمعت بينهم؟ أم هي المدينة التي مست بسحرها كيانه وجعلته متيماً بحبها؟ أو لربما اتخذ القرار بتسرع وبدون تفكير؟

انتبه لأخيه ذي العشر سنوات وقد حمل الحقيبة الثقيلة بكلتا يديه وهو يقول:

- سأرافقك للمحطة، فالحمل ثقيل عليك كما أرى.

ابتسم (عبد القادر) وقال في حنان:

- في المرة القادمة إن شاء الله، ترقب هديتك، ألم تكن تحلم بدراجة؟ أعدك بواحدة في العطلة الصيفية.

تجلّت الفرحة في عيني الصغير، وترك الحقيبة تهوي على الأرض وهبَّ يعانق أخاه في حب وود. فما كان من هذا الأخير إلا أن طبع قبلة على جبينه، وهمس في أذنه:

- لكن عدني بأنك ستهتم بدراستك، أريدك أن تحصل على المراتب الأولى، وبطبيعة الحال، لا تنسَ الاهتمام بوالديك وبأختك، فأنت رجل البيت.

التفت نحوه (أحمد) وخاطبه بدهشة:

- لكن (فاطمة) ستذهب معك. أنا الذي أدعوك لتهتم بها.

رباه. ماذا أسمع؟ الأمر صحيح إذاً، لا يمكن، ولن أقبل. ترددت بداخله كل عبارات الرفض، وبدا في قمة التوتر والعصبية وهو يتجه نحو المطبخ حيث انكبت أخته وأمه على إعداد الطعام الذي سيحمله معه خلال السفر. فاتجه صوب أمه وسألها بعصبية واضحة:

- هل صحيح ما سمعت؟ سترافقني (فاطمة) إلى الدار البيضاء.

- أجل يا ولدي. لقد رأيت أنك تغيرت كثيراً خلال الفترة التي قضيتها هناك وحدك، فليس سهلاً على شاب أن يعيش منفرداً طيلة هذه السنوات، لذا فكرت أن ترافقك (فاطمة)، أريدها أن تغير الجو قليلاً، فقد مرت من ظروف صعبة، خاصة بعد مرض الأب، ومن جهة أخرى ستؤنسك وتنظم حياتك.

- لكن يا أمي، أنت تحتاجين لمن يساعدك، أبي مريض، وأخي ما زال صغيراً و...

قاطعته وهي تصرخ:

- أبوك سأتكفل به كما كنت أفعل دائماً، أما أخوك الصغير، فالحمد لله، كلما مرت الأيام إلا وازداد ذكاء وقوة. أرجوك يا (عبد القادر) لا تجادلني، لقد اتخذت القرار، فلا تخيّب رجائي. أنت لا تدرك مقدار الهواجس والشكوك التي تنتابني وأنت بعيد عنا، على الأقل سأرتاح عندما تكون معك (فاطمة).

هل ستزيد أمك أسفاً وحزناً يا (عبد القادر)؟ أستجادل من جديد، وتجعل عنادك يتغلب على حبك وطاعتك لأمك؟ طالت مناجاته لضميره، وكان عليه أن يتخذ قراره، قرار صعب، لكن لا مفر منه. جاء وحيداً، وسيعود رفقة أخته.

في الحافلة، رماها بنظرة خاطفة، فوجدها نائمة، ولاحظ أنها تلبس ملابس خفيفة رغم برودة الجو، فنزع معطفه، وغطاها في هدوء، محاولاً ألا يوقظها من نومها العميق.

****

- "حقاً، إن المال يفتح أبواب السعادة. لأول مرة ومنذ ثلاثين سنة، أشعر بأني أستحق هذا الاسم: (سعيد)، فأنا الآن سعيد، وخلال الليلة الفائتة كنت سعيداً، وسأظل سعيداً."

راقت له تلك القطع الزجاجية البراقة التي تزين الثريا المعلقة فوقه، وأخذ يتأملها وإحساس بالانتشاء يسيطر عليه، وهو يسترجع ذكريات ليلته الأخيرة.

"لتذهب (نجاة) إلى الجحيم، ليذهب كل أولئك الفقراء التعساء إلى الجحيم هم أيضاً. يكفيني ذلك الحضن الدافئ لأنسى هموم الحياة. يا لها من ليلة."

لم يكن معتاداً على السهر، فشعر برغبة ملحة في العودة إلى النوم، فبالكاد نام لساعتين فقط. لكنه تغلّب على شعوره الملح ذاك، فمواعيد العمل لا يمكن التفريط فيها، ولن يسمح لنزواته بأن تلهيه عن أعماله. فالعمل هو الذي يضمن له ربح المال، والمال يفتح أمامه كل الأبواب المغلقة، ويمنحه السعادة والقوة والأمان.

نفض عن رأسه غبار الذكريات، وانتفض واقفاً بخفةٍ، ليلقي بجسده في حوض الاستحمام الدافئ، وليستعيد نشاطه وحيويته. ثم توجه للعمل. ظنّ أنه لن يجد (بوشعيب)، فمع المجهود الذي بذله هذا الأخير من رقص وسكر

وعربدة، لن يكون بإمكانه استعادة توازنه، والالتحاق بالعمل. "لا بأس، سأتغاضى عن زلته هذه المرة، ولن أسمح له مرة أخرى"، ردد (سعيد) في نفسه، وهو يسوق سيارته مقترباً من البوابة الكبيرة للمعمل.

استقبله الحارس بتحية تليق بمقامه، وفي طريقه إلى مكتبه، كان يتلقى الكثير من التحيات المشوبة بالاحترام والرهبة، ويرد عليها بإشارات مقتضبة من يده، واحتفظ وجهه بصرامة واضحة، مستسلماً لنداء غريب ينبعث من أعماقه ويدعوه لعدم الابتسام حتى لا يبدو ضعيفاً أمام العمال والمستخدمين.

اقترب من باب المكتب، فلقيته سكرتيرته الحسناء بابتسامة جذابة، وحيّته بأدب، فرد بهمهمات خافتة، وهو يختلس النظر لفستانها المثير الذي يبرز مفاتن الجسد. وقبل أن يلج مكتبه، إذ بصوت ينبعث من ورائه:

- صباح الخير يا سيدي.

التفت، ليتفاجأ بـ(بوشعيب) واقفاً أمامه وهو في كامل أناقته وحيويته، رغم الهالة السوداء تحت عينيه المنتفختين على الدوام. اندهش، وتيقن في قرارة نفسه أن محدثه يملك عقل شيطان وجسد ثور. فأشار إليه أن يتبعه إلى داخل المكتب، وأن يغلق الباب وراءه. اعتدل (سعيد) في جلسته وسأل (بوشعيب):

- لقد ظننت أنك غارق في أحلام الصباح. ألا تنام يا (بوشعيب)؟

- إن النوم هو آخر شيء أفكر فيه يا سيدي. فقد ألفت السهر، ولم يعد يؤثر فيّ، وكما قلت لك سابقاً، الالتزام بالعمل هو أمر مقدس بالنسبة لي، وسيظل ذلك مبدئي في الحياة.

(حتى أنت تملك مبادئ، يا للسخرية. تبيع وتشتري في أجساد البشر، وتنهش في لحم الكثيرين وفي حضورهم تبدي السماحة والود. كيف للمبادئ أن تحيا داخل قلب تنبض شرايينه كل ليلة بالعربدة والشيطنة والفجور؟)

- قل لي يا (بوشعيب)، ما وضع الشركة حالياً؟

- كل شيء على ما يرام يا سيدي. الطلبات تزداد على منتجاتنا، والإنتاج يساير الطلبات الخارجية والمحلية، بل واستطعنا توفير فائضٍ مهمٍ، نحتفظ به في مستودعاتنا الخاصة. إنه النجاح بعينه.

أثرت فيه كلمات (بوشعيب) المليئة بالحماس والمبشرة بتفوق الشركة ونجاحها، لكن حديثه عن الفائض أيقظ بداخله بعض الشكوك، ورغم محدودية تجربته في ميدان الأعمال والتجارة، إلا أنه يدرك أن الربح التجاري لا يتأتى إلا ببيع المنتوج بالكامل، أما عندما يكون هناك فائض، فهدا يعني وجود خلل، ربما لم يساير الإنتاج الطلبات فزاد عن الحد، مع ما يمثله ذلك من خسارة في المواد الأولية، واستهلاك كبير للطاقة، واستنزاف لموارد الشركة بلا طائل. فسأل (بوشعيب) وقد غلبت على صوته جدية واضحة:

- ماذا ستفعل بالفائض يا (بوشعيب)؟

- إننا نحتفظ به في المستودعات كاحتياط، قد يحدث أن تواجهنا مشاكل تقنية أو مالية، وأنت تعلم تقلبات السوق، ومع كثرة الطلبات والتزامنا بالتسليم في أوقات محددة، وحتى لا نفقد ثقة الزبائن، فإننا نعود لهذا الاحتياطي، ونستغله أحسن استغلال.

(شيء ما يدفعني ألا أصدقه، لكن، ما باليد حيلة، فكلامه منطقي، وبقدر ما أتوجس منه، بقدر ما أرتاح إليه. ها هو يبرز أسنانه الصفراء، ويبتسم تلك الابتسامة الخبيثة، ترى أي خبر جديد ستعلنه يا (بوشعيب)؟)

- سيدي، هناك مشكل صغير.

- ما طبيعة هذا المشكل؟

- كما تعرف، فقد بني المعمل منذ فترة طويلة، وأدخلت تحسينات عليه خلال فترات متقطعة، لكنها همّت الآلات والمستودعات وغيرها، أما المكاتب فيقيت على حالها. واليوم، يعاني المستخدمون داخل هذه المكاتب التي اهترأ خشبها وتكسرت بعض مرافقها. لذا فإننا نحتاج للقيام بعملية إصلاح وتجديد، فسمعة الشركة على المحك.

- نحتاج إذاً إلى ورش نجارة. أليس كذلك؟

- متمكن، وأعرف مقاولة مشهورة ولها خبرة في هذا العمل. أحتاج إلى موافقتك سيدي وسأربط الاتصال معهم حالاً.

"أين يمضي تفكيرك يا (سعيد)؟ ما هذه الفكرة الغريبة التي تجول في خاطرك؟ ولم عادت صورة (نجاة) لتسيطر على عقلك؟ ورش نجارة، نجار؟؟ هل تذكرت شيئاً؟ (المعلم محمد)، ذلك البئيس الذي حضي بفاتنته. لماذا تتذكره الآن؟"

بدا ذلك البريق المخيف في عينيه وهو ينظر لـ(بوشعيب)، الذي كان مستغرقاً في الإشادة بعمل تلك المقاولة وجودة خدماتها، فقاطعه بإشارة من يده، وقال بصوتٍ هادئ:

- لا يا (بوشعيب). انسَ أمر المقاولة، وسأدلك على من يتكلف بذلك العمل.

وأخذ ورقة، وكتب فيها بعض الأشياء، ثم قدمها له وهو يقول:

- هذا عنوانه. لا تتفاجأ بصغر محله، ولا بقلة مستخدميه، فأنا أعرفه منذ زمن بعيد، فبالإضافة إلى إتقانه لمهنته، فهو يملك حساً فنياً وذوقاً رفيعاً في إعداد المكاتب، كما أن أتعابه غير مكلفة، ما رأيك؟

تأمل (بوشعيب) العنوان المكتوب على الورقة، هو العالم بجغرافية المدينة وحواريها وأزقتها، وتساءل في نفسه: "ماذا تخفي وراءك أيها المدير؟"، ورغم خبرته في استكشاف أعماق البشر، إلا أنّ سيده بدا غريباً، غامضاً. ولم يجد بداً من الموافقة، وما عساه يفعل. فدس الورقة في جيبه، ووقف في هدوء وهو يقول:

- سأتوجه حالاً عند (المعلم محمد)، ومن الغد سيبدأ عمله، فنحن لا نحب التأجيل.

ابتسم (سعيد) ورد في برود:

- بالطبع يا (بوشعيب)، لا تأجيل ولا تأخر.

نطق جملته الأخيرة بإيقاع غريب، فزادت حيرة (بوشعيب)، وشعر للحظة أنه بدأ يتوجس من هذا الوديع الذي تضيع وداعته مع مرور الأيام، ويزداد صرامة وقسوة وغموضاً.

****

- نزلتْ من الحافلة، واقتفت خطوات أخيها المسرعة، كانت في غاية التعب، بعد ليلة كاملة قضتها في الطريق، فلم تكن تألف السفر، ولا ركوب الحافلات، ورغم أنها في ربيعها الثالث والعشرين، إلا أنها لم يسبق لها السفر بعيداً عن وجدة. لم تكن تعرف من (المغرب) سوى وجدة، ولدت فيها، ونشأت بين أحضانها، وعاشت طفولتها وفترات الشباب الأولى بين أزقتها ودروبها، وتعلمت في مدارسها وصولاً إلى جامعتها، حيث نالت إجازة في الحقوق، وأجلت حلم العمل إلى وقت آخر، بعد أن انشغلت بظروف أبيها الصحية، وحيث تكلفت الآن بأخيها الأكبر. وتشاء الأيام أن تمنحها فرصة للتعرف على جهة أخرى من وطنها الجميل، فتضع خطواتها الأولى في هذه المدينة العملاقة، (الدار البيضاء).

اندهشت من البياض المنتشر حولها، ومن العمارات الكبيرة الممتدة على طول الشوارع، واندهشت أكثر لتصرفات البشر، أمواج من الناس تمر من أمامها في سرعة ولهفة، كأنها آلات فقدت المشاعر والأحاسيس، وحذفت من قاموسها معاني التأني والهدوء، وشعرت (فاطمة) في لحظة بعيون ترمقها بنظرات حادة، تملؤها الوقاحة، فالتصقت بأخيها، الذي أمسكها من يدها،

ليعبرا الشارع الواسع، متجهيْن نحو سيارة أجرة صغيرة واقفة في الجهة المقابلة، والتي انطلقت بهما نحو الحي الشعبي الذي يقطنه (عبد القادر).

شقة صغيرة من غرفتين، فضحت الرطوبة التي سكنت جدرانها رَداءة الصباغة، فتكونت بقع مشوهة على الجدران، وانتشرت رائحة نفاذة في المكان، جعلت (فاطمة) وبحركة لا شعورية تضع يدها على أنفها. انتبه الأخ لتصرف أخته، فحاول التخفيف عنها قائلاً:

- إنه مسكن عازب يعيش وحده. هل اعتقدت أنني أعيش في فيلا؟

كانت تعرف أنه يحاول أن يبعد عنها وقع التغيير المفاجئ في حياتها، هي التي اعتادت أن تعيش في بيت أنيق، تزينه أحواض الورود الملونة، وتضفي عليه بشاشة الأم، وحضور الأب، وشقاوة الأخ الأصغر، سحراً وجاذبية. فابتسمت في وجهه وهي تقول:

- منذ متى لم تنظف هذا المكان؟

تذكر فعلاً أنه ومنذ زمنٍ لم يهتمِمْ بتنظيف مقر سكناه، فجلّ الوقت يقضيه في العمل ليعود متعباً، ينشد النوم والراحة.

أزالت عنها الجلباب الأنيق، ولفت شعرها تحت وشاح قصير، واتجهت نحوه قائلة:

- اذهب واقضِ أغراضك، فلدي عمل لا يحتمل التأجيل.

لم ينطق بكلمة، واكتفى بتأملها وهي تشمر عن ساعديها وتبدأ العمل. إنه فعلاً يحتاج إليها، ولا شك أنها ستضفي لمسة ساحرة على بيت العزاب هذا. انتبه من أفكاره على صوت طرقات سريعة على الباب، فاتجه نحوه مردداً:

- مَنْ؟

أتاه الصوت من الجانب الآخر بنبرة عالية مشوبة بنكهة مرح:

- حمداً لله على سلامتك يا (عبد القادر).

آه. هذا الصوت؟ لقد اشتاق إليه فعلاً. أسرع يفتح الباب، وتبادل عناقاً طويلاً مع صديقه الوفي، والذي بادره باهتمام:

- كيف تركت الوالد؟

- الحمد لله على كل حال، مازال طريح الفراش، لكن الوضع أفضل من السابق.

بدا الأسف في عينيّ (خالد)، وتساءل في لحظة: هل قدرنا أن نعيش الحزن على الدوام؟ لكن مسحة الحزن لم تدم طويلاً، فسرعان ما استعاد روحه المرحة التي تعود كلما التقى بصديقه المقرب، فلطالما اعتبر (عبد القادر) بلسماً يشفي جراحه، ربما بسبب هدوئه، أو لعلها كلماته المليئة بالحب والمغلفة دوماً بالإيمان، أو هي ملامحه السمحة التي تجعل فورة الغضب والغيظ تنطفئ أمام البشرة البيضاء والخدود المتوردة بالدماء، والابتسامة المشرقة التي تتلألأ بين اللحية الشقراء.

انبعث صوت الأخت من داخل المطبخ وهي تصيح بصوت مبحوح بفعل الغبار:

- أمازلتَ هنا يا (عبد القادر)؟

- نعم. أعدي لنا كأس شاي منعنع يا (فاطمة)، فمعي ضيف عزيز.

خفت حدة الغبار في لحظة، فكأن سماعها كلمة ضيف أدهشها، وأسرعت تعدل من وضع الوشاح على رأسها، ولفت جسدها في ثوب محتشم. أما (خالد) فقد أدهشه الموقف هو أيضاً، وبذل جهداً في دواخله ليستوعب الأمر، "ترى من تكون صاحبة الصوت؟ أيكون (عبد القادر) قد...؟"

رمق صديقه بنظرة عتاب، وخاطبه:

- لا أفهم ما يجري هذه الأيام. (سعيد) اختفى، ولا أعلم شيئاً عنه منذ وفاة أمه. وأنت يا (عبد القادر)، تتزوج دون أن تخبرني. أتأسف على عهد صداقتنا الذي ما فتئتم تقطعون جذوره.

ضحك (عبد القادر)، وانتبه أن صديقه (خالد) لم يبادله ضحكته، بل ولم يبتسم حتى، ففهم أنه يتحدث بجدية، وأن الأحداث قد تجاوزته، فأمسك بكتفه وهو يقول:

- بالكاد أستطيع تدبير شؤوني في هذه المدينة التي لا ترحم، فبالأحرى أن أعيل زوجة، وأكون أسرة. في الحقيقة، فكرت مراراً في الأمر، وقمت بالعديد من الحسابات، لكنّني اكتشفت أن هامش الخسارة أكبر من فرص الربح، فعدلت عن الأمر.

أشار (خالد) إلى المطبخ، وسأله في ذهول:

- من تكون إذاً؟

- إنها أختي، (فاطمة). لقد أريتك صورتها سابقاً، ألا تتذكر؟

- أتقصد تلك الطفلة المشاغبة التي حدثني عنها يوماً.

- هي بالذات. لو سمعتك تقول عنها طفلة، فلن أضمن أن أنقذك منها.

تبادلا ضحكات صافية، وشعرا في الوقت عينه بأنهما محظوظان، فكل واحد يزرع السعادة في قلب الآخر.

طرقت (فاطمة) باب الغرفة بهدوء، فدعاها أخوها للدخول وهو يقول بصوتٍ عالٍ:

- ادخلي يا (فاطمة). إنه صديقي (خالد)، ليس غريباً على أية حال.

"خالد"، كثيراً ما حدثها عنه، وعن "سعيد"، حتى رسمت لهما صورة في خيالها. لكن، لِمَ يطلب منها أخوها الدخول؟ إنها خجولة، ولم تألف الجلوس مع الضيوف الرجال. وانبعث صوت من أعماقها يدعوها لتنزع عن عقلها تلك الأفكار، ستدخل، وستضع الصينية، وتحيي الضيف بكلمة، ثم تعود أدراجها.

فتحت الباب في هدوءٍ تامٍ، وتقدمت بخطوات سريعة، وهي تنظر للأسفل، ولما اقتربت من المائدة الصغيرة رددت:

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام ورحمة الله.

"كان صوته، لمَ لا أرفع عيني لأراه؟ ولماذا سأراه أصلاً"

- لقد كبرت يا (فاطمة). ما شاء الله.

- أصبحتْ عروساً أليس كذلك؟ أضاف (عبد القادر) في مرح.

شعرت بنبضات قلبها تثور، وبالدماء تفور في وجهها. إنها خجولة، وأخوها يعرف ذلك جيداً، ولكنه يتعمد أن يزيد من توترها وتبعات خجلها، فقررت أن ترميه بنظرة عتاب، حتى يفهم أنه تجاوز الحدود. رفعت عينيها نحو أخيها، وشعرت بخيبة لما رأته منشغلاً في تقليب إبريق الشاي، غير منتبهٍ لها. فحركت بصرها نحو اليمين قليلاً في ردة فعل لا شعورية، لتصطدم عيونها بعيني (خالد) الذي كان ينظر نحوها، لم يستغرق الأمر سوى ثوانٍ معدودةٍ، لتجد نفسها في المطبخ من جديد، وصورة العيون الخضراء تتراءى أمامها.

بادر (عبد القادر) صديقه، وهو يناوله كأس الشاي:

- قل لي يا (خالد)، هل من جديد؟

- الحق يا صديقي، أني قررت البحث عن عمل. أمي تعبت كثيراً، ذلك الجسد النحيل قد أنهكته ساعات العمل المتواصلة في البيوت. لقد تحدثت معي كثيراً بالأمس، وفي لحظة شعرت بأنني أخطأت كثيراً في حقها، وأنني فضلت عزة نفسي على إسعاد أمي، وكم كان صعباً أن أكتشف الأمر بعد فوات الأوان.

- لم يفت الأوان بعد يا (خالد)، وبإمكانك أن تصحح الوضع، وتعيد البسمة والألق لوجه أمك. صاحب المتجر الذي أعمل فيه يبحث عن مستخدم جديد، فقد سمعته يخبر أحدهم بذلك، وسيسعدني حقاً لو يكون المنصب من نصيبك، ويجمعنا عمل واحد، بعدما جمعتنا الحياة.

- أتطلب مني أن أتحمل عنجهية ذلك العجوز الأخرق. لن أستطيع تحمل ملامحه الكئيبة ولا نظراته المستفزة و...

قاطعه (عبد القادر) بحركة من يده، وقال بنبرة عتاب:

- ها قد عدت من جديد لعادتك السيئة، ما لك أنت ومظهره وملامح وجهه؟ اسمع يا صديقي، لكي تجد عملاً عليك أن تتنازل قليلاً عن عزة نفسك وكبريائك.

- صدقت. ربما خلق الكبرياء للأغنياء فقط، أما نحن، فلا فرق. هل تظنه سيقبلني؟

- حسب معرفتي به، فهو يفضل دائماً (ولادْ البلاد). وهذا من حسن حظك، فهو ينحدر من منطقتك يا (خالد).

"صورة الأب القاسي والمدمن على الحشيش، والضربات القوية تنهال على وجه الأم، تلك الوجوه البئيسة التي فقدت جمالها الطفولي، وافتقدت نضارة الشباب، نساء بالكاد تظهر أجسادهن وسط أكوام من الحطب تكدست فوق ظهورهن النحيلة، وأحلام تموت في مهدها. لماذا أتذكر كل هذه المشاهد والأحداث التي تشعرني بالمرارة؟"

نظر في عيون صديقه، وردد باستسلام:

- حسناً يا (عبد القادر)، لنتوكل على الله.

تألق الفرح على محيا صديقه الذي تحدث بحماس:

- نعم يا (خالد)، لنتوكل على الله.

خرجا معاً، الشارع الكبير يزدحم بالبشر، كتل آدمية آمنت بأنها تعيش في زمن السرعة، فلم تعد تفرق بين المشي الوئيد وبين الهرولة. ذابا وسط الزحام، وساد بينهما صمت كئيب. مضى عقل (عبد القادر) هناك، نحو وجدة، حيث الأب المريض والطريح الفراش، وتراءت أمام عينيه صورة أمه، ودموعها وهي تودعه بصوت خنقته العبرات، وتذكر أخاه الأصغر الذي سيتحمل مسؤولية صعبة منذ صغره.

أما (خالد) فقد ظل يتساءل في ذهول عن سر تلك الرجفة التي هزت قلبه منذ لحظات. حاول أن يتذكر آخر مرة انتابه نفس الشعور، فاكتشف أنه لم يجربه يوماً، وعاد ليرتب الأحداث في عقله، وتجتاحه صورتها، (فاطمة)، عيناها، خجلها، تصرفها. لم يستغرق الأمر سوى ثوانٍ معدودةٍ، لكن تلك الفتاة تركت بداخله أثراً غريباً، ووقعاً أكثر غرابةً. لم يكن من النوع الذي يجعل مشاعره تتحكم فيه، ولطالما اعتبر الحبَّ مجرد كلمةٍ تفتح له أبواباً مغلقةً، كلمة ينطقها بلسانه دون أن يؤمن بها قلبه. ترسبت في عقله فكرة أنه لم يخلق للحب، فكان يلهو، تروقه تلك التمثيلية التي أجاد أدوارها ببراعة، وهو ينتقل بين قلوب كثيرة، يغدق عليها الكلام المعسول، وفي

أعماقه تتردد ضحكات ساخرة. كان ينتقم دون أن يفهم ممن؟ ولماذا؟ وغالباً ما كان يسأل نفسه: وماذا بعد؟

وصلا للمتجر الكبير، تبادل (عبد القادر) التحايا مع المستخدمين، ولحسن حظهما، فقد كان رب العمل متواجداً، على غير عادته في هذا الوقت، تقدم نحوه (عبد القادر) وصافحه بأدب، ولم يستغرب لردة فعله الخالية من أية تعابير، ولا لعدم سؤاله عن صحة أبيه، فقد اعتاد على طبيعة الرجل وصرامته. وتقدم (خالد)، رسم على وجهه ابتسامة لم تنَل نصيبها من التألق، وخاطب الرجل بلهجة أمازيغية:

- أهلاً (السي الحاج).

واستمر يتحدث عن واقعه الصعب، وعن أمه المريضة، وحاجته للمال، وأنه سيكون وفياً ومخلصاً ومتفانياً في العمل، ولم يفته أن يشيد برقة قلب الحاج وعطفه على الفقراء و(ولْاَد البْلاَدْ) على الخصوص، وأسهب في الحديث عن مسقط الرأس، ليثير مشاعر الرجل، وينال موافقته.

اندهش (عبد القادر) من محاضرة صديقه، الذي تحول إلى ممثل محترف يلعب دوراً تراجيدياً بكل صدق، ولا تنقصه سوى الدموع ليبدو المشهد أقرب إلى الواقع. ولم تذهب مجهودات (خالد) سدى، فقد أبدى العجوز موافقته بكلمات مقتضبة، وإن كرر كلمة الإخلاص مراراً.

كتم (عبد القادر) صرخة فرح كادت تنفلت من بين شفتيه، وشعر (خالد) بأنه صار يحب هذا الرجل الطيب.

- تساقطت أمطار الخير هذا الصباح لتشعر القلوب بالفرحة والأمل، قلوب تحيا في بلد يحيا بالمطر، ويظل أبناؤه متطلعين إلى السماء، يدعون الله أن ينزل عليهم الغيث. وبينما تسارع الراجلون للاختباء والاحتماء من شدة القطرات المتهاطلة، كان (سعيد) يقطع الشارع الطويل بسيارته وبسرعة كبيرة، غير مبالٍ بصرخات الغضب والتذمر من أناس بالكاد وجدوا حلاً لمياه السماء، فإذا بمياه أرضية تغمرهم وتبللهم.

كان مسرعاً هذا الصباح، وفي أعماقه لهفة وترقب لما سيحصل بعد لحظات، وفي عقله دائماً تجري سيناريوهات للحدث القادم. فُتح الباب الكبير، ودخلت سيارته لتستقر في مكانها المعتاد. نزل (سعيد) وقد علت وجهه صرامة واضحة كعادته كلما دخل المعمل، وهو لا يدري لم يتجهم وجهه بتلك الطريقة، أهي حركة لا إرادية لرجل يمتلك النفوذ والجاه؟ أم أن سنوات الفقر والحرمان قد زرعت في تقاسيم وجهه علامات الكآبة والوجوم؟

صعد الدرجات القليلة، واستقبلته الحسناء وهي بكامل زينتها ورقتها: صباح الخير سيدي.

رد بهمهمة غير واضحة، ودخل مكتبه وهو يقول في حزم:

- (بوشعيب)، أريده فوراً.

مرت بضع دقائق قبل أن يدخل شيطانه المحبوب، دلف في خفة رغم جسده المكتنز، وجلس قبالة سيده وهو يقول:

- صباح الخير سيدي، هل...

لم يتركه ليكمل عبارته بعد أن سيطرت لهفته عليه، فقاطعه بحدة وهو ينظر في عينيه:

- كيف تجري الأعمال الخاصة بتجديد المكاتب؟

انتبه (بوشعيب) لجدية رئيسه، فرد بجدية هو أيضاً:

- إني معجب باختيارك يا سيدي. ذلك الرجل ماهر، ويتقن عمله، ورغم قلة مساعديه، إلا أنهم بذلوا جهوداً كبيرةً، فقاموا بإصلاح قسمَين كاملين في ظرف ثلاثة أيام فقط. في الحقيقة، لم أكن راضياً على اختيارك سيدي، وأنا أقابل الرجل لأول مرة وأرى مكان عمله، وتساءلت في قرارة نفسي: كيف يمكن لهذا القصير النحيل أن ينجز المطلوب؟ لكنّني تيقنت اليوم من براعته.

"آه يا (بوشعيب) لو تعرف الفردوس التي يعيش فيها هذا القصير الذميم، ولو تتصور للحظة أنه يشارك الفراش واحدة في منتهى الجمال والرقة، كيف سيكون تصرفك؟". اقترب (سعيد) أكثر من محدثه والذي لمح بريقاً غريباً يلمع في العيون العميقة، وقال بصوت غريب النبرة:

- اسمع يا (بوشعيب)، حين ينتهي من المطلوب منه أرسله لي، أريد أن أكلفه بعمل يخص مكتبي.

نهض (بوشعيب) بسرعة وهو يقول:

- سأرسل في طلبه الآن يا سيدي. واندفع مغادراً المكتب، كأنما يهرب من النظرات المخيفة لسيده.

"ما بك يا (سعيد)؟ ما هذا الشعور الذي يتكون في أعماقك؟ وما هذه الأفكار التي تجري في عقلك؟ ومتى سكن هذا البريق المخيف عينيك؟ لقد تغيرت، نعم تغيرت كثيراً. أين (سعيد) البائس والحزين والمنكسر؟ أين ذلك الشاب الذي تحمل الكثير من كلمات الناس وهمساتهم؟ وعانى قسوة الجوع والحرمان والإهانات المتكررة؟

أصبحتُ غنياً، منحتني الحياة فرصة عظيمة لأنني أستحقها، فقد كنت أعلم ومنذ زمن بعيد أنّ شخصاً بذكائي وقوتي وكبريائي، لم يُخلقْ ليكون فقيراً، وأن الأمر لا يعدو مسألة وقت فقط. لكن..."

أعادته هذه الكلمة لما أراد نسيانه، ولتلك الغصة اللعينة التي تجثم على صدره، وتسد مجرى الهواء عن رئتيه، فيشعر بالاختناق. ذلك الشعور المقيت بعدم الرضا يسيطر عليه منذ مدة، وتلك الكوابيس التي تؤرق نومه أحياناً، فيقضي ليلته محمّلقاً في سقف غرفته، وهواجس تغزو تفكيره، كلها أمور تنكد عليه حياته الجديدة، وتجعله أسير الحزن والقلق.

لكنه وجد الترياق لدى (الحاجة)، هناك، في جنتها يتخلص من مشاعره الكئيبة، ويستشعر بعض السعادة. كأن نفسه تهوى الخطيئة، تتمرغ في وحلها، تنصهر داخلها لتروي عطش الماضي الأليم، كل سنوات القهر والمعاناة التي تجثم بثقلها وبؤسها ونارها على قلبه، يطفئها جسد امرأة فاتنة، أو شراب معتق، أو لذة الانتقام. نعم، يجد في الانتقام لذة غريبة تسري في عروقه، فأعداؤه كثر، وحان الوقت لرد الصاع صاعين لماض احتقره وأهانه.

طرقات على الباب، تدخل الحسناء وتخبره أن أحدهم يود مقابلته، ويعرف منها أنه (المْعلّم محمد)، فيأمرها بأن تدخله. يدخل الرجل، تماماً كما وصفه (بوشعيب)، وتماماً كما عرفه هو منذ زمن بعيد. نظر الرجل للجالس وراء المكتب الفخم في ذهول، وحاول أن يتذكر أين شاهد ذلك الوجه من قبل، فأيقظه (سعيد) من ذهوله وهو يفتح ذراعيه مرحّباً:

- أهلاً (السِّي محمد) كيف حالك؟

ارتمى الرجل في حضن مستقبله بعد أن عرفه أخيراً، وقد طغت عليه مشاعر اللهفة والفرحة:

- (السي سعيد)، لم أعرفك للوهلة الأولى، فقد تغيرت. هل أصبحت مديراً؟ ما شاء الله، زادك الله من فضله، فأنت تستحق كل خير.

واسترسل الرجل في كلماته الطيبة ودعواته الصادقة، والتي لم تلقَ استجابة من (سعيد) الذي بدا متضايقاً وهو يشير إلى مكتبه:

- (السي محمد)، لقد أديت مهمتك على أكمل وجه، ولم يتبقَّ لك سوى هذا الدرج في مكتبي، فقد تكسر للتو. هيا أرني همتك.

انهمك الرجل في العمل بدون تردد، ولسان حاله يقول: -تستحق مني أفضل العمل يا جاري السابق. بينما شرع (سعيد) في تنفيذ خطته، ففتح خزنته، وأخرج رزمة من المال، ووضعها في علبة الرجل البلاستيكية دون أن ينتبه، ثم بادره:

- لدي عمل، سأعود بعد خمس دقائق.

رد الرجل بابتسامة، واستمر في عمله بنفس الهمة والحماس، وتوجه (سعيد) ليطلب من سكرتيرته المناداة على (بوشعيب)، ودخلا معاً إلى المكتب، وتوجه المدير نحو الخزنة، ففتحها، ثم صرخ في غضب:

- من أخذ رزمة المال؟ **90** ألف درهم وضعتها للتو في الخزنة، أين ذهبت؟

انتفض (بوشعيب) في قوة وهو يسمع صراخ سيده، بينما استمر الرجل في عمله غير مبالٍ بالأمر مادامت مشاكل المدراء لا تهمه. واستمر(سعيد) في أدائه التمثيلي، وهو يدعو (بوشعيب) لاستدعاء رجال الأمن بسرعة.

ومرت الأحداث بسرعة أكبر. دخل رجال الأمن وفتشوا المكان، لم يتركوا شيئاً إلا وقلبوه، وحمل أحدهم العلبة البلاستيكية الكبيرة التي وضع فيها (المعلم محمد) أدواته، ليجد بداخلها رزمة المال. اتجهت الأنظار نحو

المسكين، فواجهها بضحكة عصبية وهو يقول: لا يمكن. لست أنا من يسرق. (السي سعيد) يعرفني جيداً، ويعرف نزاهتي.

استلقى (سعيد) على كرسيه، وقد غمره ارتياح غريب لا يتفق مع الموقف أمامه. وخرجت كلماته مغلفة بالحزن والأسى:

- نعم، أعرفك جيداً، ولهذا تسرقني أيها اللص عديم الضمير.

وضعت الأصفاد في يدي الرجل الذي اكتفى بنظرات حزينة بعدما تجاوزت الأحداث حدود إدراكه ودرجة تحمله، ورنا بنظره لـ(سعيد) وهو يساق نحو مصيره، كأنما يسأله: لماذا؟

وحين انفض الجمع، كان (بوشعيب) ينظر ناحية رئيسه بدوره، وشعور بالخوف يجتاح كيانه. نعم، لأول مرة يتوجس من هذا الشاب ذي العينين العميقتين. وسؤال يتردد في ذهنه: لماذا القصير الذميم؟

****

- ألقتْ نظرة أخيرة على المائدة، وارتسمت ابتسامة الرضا على شفتيها وهي تهنئ نفسها على مهارتها في الطبخ والإعداد. وانتبهت للساعة، ففوجئت أنهما تأخرَا بضع دقائق عن الموعد، وشرع عقلها يقودها نحو الأسوأ، لكن جرس الباب سرعان ما أيقظها من شرودها.

فتحت بحذر، ولما تأكدت من أنه أخوها، انصرفت للداخل. بينما نادى (عبد القادر) على (خالد)، ودخلا ليجلسا على الأريكة. كان التعب بادياً على (خالد) بعد أول يوم من العمل. عملٌ مرهقٌ ومضنٍ، لا يليق بشاب متعلم ومتفوق وحاصل على شهادة عُليا. انتبه (عبد القادر) لشرود صديقه، فخاطبه بعتاب لطيف:

- ليس وقت النوم يا (خالد)، فلن تقبل (فاطمة) بأن يهمل طعامها.

كان لاسمها وقع غريب عليه، فاعتدل في جلسته، وانتبه لأصناف الطعام المختلفة الموضوعة أمامهما، وحاول أن يتذكر آخر مرة تناول فيها طعاماً مشابهاً. ونادى (عبد القادر) أخته لتشاركهما الطعام، فأقبلت بذات الحشمة والوقار والهيبة. وكانت لحظة قالت فيها العيون الشيء الكثير. انهمك (عبد القادر) في الأكل دون أن يهتم لأحد، بينما كان الشخصان الآخران يأكلان ويشربان وتخونهما أعينهما في مرات كثيرة، فتلتقي

نظراتهما لتخلف في النفوس والأجساد بليغ الأثر. تساءل (خالد) في سره: ماذا يجري؟ ورددت (فاطمة) مع نفسها: ماذا حل بي؟ أهي لعنة هذه المدينة تصيبني؟ ضايقتها ضربات قلبها الثائرة، وتوترها الزائد كلما التقت نظراتهما. وتضايق (خالد) من وجود (عبد القادر) وإلا لأطلقها صرخة مدوية: أحبك يا (فاطمة).

ليس ذلك الحب القديم الذي تحركه النزوات والرغبات المكبوتة، وليست تلك الكلمة التي تخرج من شفاهه دون أن يؤمن قلبه بها. بل هو حب جديد، يستشعره في فؤاده، ويحرك الكثير في دواخله.

- حمداً لله. تكلم (عبد القادر) بصوتٍ مرتفعٍ، واتجه نحو الحمام ليغسل يديه. فشعر (خالد) بأن لحظة الصفر قد حانت، وأحست (فاطمة) بأن رجليها لا تسعفانها على الوقوف والهرب، فجمدت في مكانها ويداها تعبثان بقطعة خبز صغيرة. جرت آلاف الكلمات على لسان (خالد) الخبير بالنساء، وتكلم أخيراً:

- أهنئك. الطعام رائع.

ردت بصوت هادئ: شكراً.

ووقفت، تخلصت بصعوبة من إحساسها المخيف بالعجز، وفي اللحظة نفسها، توقف (خالد) ليساعدها على جمع الأطباق، وبحركة لا إرادية لمس يدها. لم يستغرق الأمر سوى جزءٍ من الثانية، لكن وقع اللمسة العفوية

كان شديد الأثر. فقد تركت الأواني واتجهت مسرعة نحو المطبخ، بينما جلس (خالد) في مكانه.

ودع (عبد القادر) صديقه على أمل لقاء قريب في العمل. ولم ينسَ (خالد) وهو يغادر بيت صديقه، أن يلتفت نحو المطبخ ويردد بصوتٍ عالٍ:

- وداعاً (فاطمة). جزاك الله خيراً على الوليمة.

وردت بصوت هادئ بالكاد يسمع: -رافقتك السلامة.

****

16

- مضت تقطع الغرفة ذهاباً وإياباً ولسانها يصدح بذات العبارة: " لم يتأخر يوماً لغاية هذا الوقت." وأخذتها وساوسها لأسوأ الأمور، فاستغفرت ربها، ثم خرجت لتقابل أمها المنشغلة بمتابعة برامج التلفاز. كان الخوف والتوتر باديين على وجه (نجاة) وهي تقترب من أمها والتي انتبهت لحالة ابنتها فسألتها بقلق:

- ما بك يا (نجاة)؟ تبدين شاحبة.

- إنه (محمد) يا أمي...

كانت كلماتها متقطعة وهي تحدث أمها عن زوجها الغائب.

- لقد تأخر اليوم كثيراً في العودة وتلك ليست عادته.

انتقل القلق والتوجس إلى الأم التي تكن الكثير من الحب لزوج ابنتها. فقد تأثرت كثيراً بقصته هو اليتيم الأبوين، وعندما احتكت به كثيراً ولمست نبل أخلاقه ودماثة طباعه، ازداد حبها له، واعتبرته ابناً لها هي التي لم تنل من الدنيا سوى ابنة وحيدة. أما (نجاة)، فلم يكن ذلك شعورها في البداية. فقد رسمت في عقلها صورة مثالية لفارس الأحلام، وصحت من أحلامها على رجل قصير، بعيد عن الوسامة. لكنها اكتشفت، ومع مرور الوقت، أنه رجل طيب. فأحبت رجولته، وطيبوبته، تلك الطيبوبة التي

تسمعها في كلماته، وفي تعامله معها ومع أمها، وفي تفانيه الكبير في عمله وسعيه ليوفر لهما رغد العيش.

طرقات عنيفة على الباب. انتفضت (نجاة) في خوف. ودعت الأم الله اللطف وهي تتوجه لتفتح للطارق. أمامها وقف شاب في قمة التوتر، حياها بسرعة، وأضاف بنبرة قلقة:

- لقد قبضوا على (المْعلم). اتهموه بسرقة مال من الشركة التي كنا نعمل بها. استجوبونا جميعاً، واحتفظوا به رهن الاعتقال. إنه بريء، لا يمكن للمعلْم(محمد) أن يسرق. إنه في دائرة الأمن الرابعة إن أردتم الاطمئنان عليه.

انصرف الشاب بعد أن أطلق قنبلته. وترك ضحاياه وراءه، فبقيت الأم واقفة أمام الباب جامدة، قد شلت المفاجأة أوصالها وعقلها هي المريضة أصلاً. أما (نجاة) فلم تستطع التحمل، لتسقط على الأريكة فاقدة الوعي. وصرخت الأم بأعلى صوتها. في لحظات، كان الجيران يسعفون الفتاة، وآخرون يستفسرون عما وقع من (لالة راضية) التي جلست تردد: لاحول ولا قوة إلا بالله. لا حول ولا قوة إلا بالله.

****

- لم تزعجه الكوابيس ولا الأحلام، كان نوماً عميقاً لم يصحُ منه إلا على صوت المنبه. أفاق في نشاط غير معهودٍ، واختار أجمل حلة ليبدو في كامل أناقته. وانطلق بسيارته نحو المكان المقصود. قطعت السيارة الفخمة أزقة ضيقة، وشعر سائقها بالضيق وهو يعاين منظر الأزبال المتناثرة في كل مكان، والبيوت البائسة التي يقطنها الفقراء والمعذبون في الأرض. توقفت السيارة أخيراً. المكان كما تركه، لا شيء فيه قد تغير، نفس القذارة، ونفس الوجوه التي غطتها الكآبة والبؤس. "الدكان ما يزال مغلقاً، أيكون الحاج قد مات؟ لا، ليس بعد. فما زال لي معه حساب طويل."

صعد الدرجات بخفة، وتوقف أمام الشقة القديمة طويلاً، فاسترجع الكثير من الذكريات، وتذكر أنه لم يزر يوماً قبر أمه. نفض الفكرة عن رأسه بسرعة وهو يتوجه نحو الشقة المقابلة ويطرق الباب. فتح الباب، بدت الحاجة شاحبة الوجه، فكأنما زيد في عمرها عشرات السنين، وأحاطت هالة سوداء بعينيها دلالة على قضائها ليلة سيئة بحق. دعته للدخول بصوت فقد حيويته. اقتحم المكان بجرأة، وجلس على الأريكة. اقتربت منه المرأة ومدت يدها لتستند على كتفه، قبل أن تجلس قربه وهي تقول:

- الحمد لله أنك أتيت يا ابني (سعيد). فأنا أحتاج إلى رجل في هذا الوقت العصيب.

" الآن أصبحت رجلاً؟ كيف كنتم ترونني بالأمس القريب؟ و(نجاة)، هل اعتبرتني رجلاً وهي ترتمي في حضن ذلك البشع؟". كتم غيظه وهو يرد بابتسامة مصطنعة:

- لا داعي للحديث، فأنا أعلم كل ما حصل.

تجلت الدهشة على وجه المرأة وسألته بذهول:

- ولكن، كيف علمت بالأمر؟

- الأمر بسيط. أنا صاحب المعمل، والمال الذي سرق هو مالي. ردد بهدوء.

بدا أن المرأة لم تفهم شيئاً، فأعاد (سعيد) نفس الكلام بهدوء أكبر وهو يعدل ربطة عنقه، كأنما يدعوها للتأمل في أناقته حتى تفهم أنه تغير، تغير كثيراً. كادت تسأله من جديد بنفس الذهول والاستغراب، لكنه سبقها وهو يقول:

- أين (نجاة)؟

أشارت بيدها نحو حجرة مغلقة، ورددت بحزن:

- لم تتحمل وقع الصدمة ففقدت وعيها. تركتها نائمة لتستريح قليلاً. أسـأل الله العظيم أن يحفظها و...

تركها تسترسل في دعواتها، ونهض متوجهاً نحو الحجرة بجرأة تصل حد الوقاحة. فتح الباب، فسرت رائحة غريبة في أنفه، مزيج من البخور ورائحة عطر نسائي. انتبه للجسد الملتف في غطاء، واقترب أكثر، ثم أكثر.

تناثرت خصلات شعرها الأسود الناعم، وبدا وجهها الدائري الجميل شاحباً بعض الشيء بفعل ما حدث. كانت ذراعها غير مغطاة، فأثارته الذراع البيضاء المكتنزة. جلس على حافة السرير، ومد يده ليعدل من وضع الخصلات الثائرة، لم تصدر عن (نجاة) أية حركة، فتجرأ أكثر، وأمسك الذراع العارية. شعر ببعض الحرارة تسري في جسده، فأزاح جزءاً من الغطاء عن الجسد الساكن. كانت تلبس رداء نوم قصير، فاشتعلت النار في جسده، وشعر بأنه يغرق في بحر من العرق البارد. أزال سترته ورماها بعيداً، وتخلص من ربطة عنقه. ثم دنا من وجهها، تلك الحمرة الفاتنة في شفتيها تناديه، اقترب أكثر، و...

- ماذا تفعل يا (سعيد)؟

التفت بسرعة ليجد الأم واقفة قرب الباب وقد سكن عيونها غضب مخيف. وقف (سعيد) بسرعة، وانحنى ليأخذ سترته وهو يقول:

- كنت أطمئن على صحة (نجاة). لا بد أنها منهارة بسبب ما وقع.

لم يمتلك الجرأة على النظر في عيون محدثته والتي شعر بنظراتها تحرقه وتؤلمه. وقرر أن يهرب، أن يغادر المكان ويفر من الموقف المحرج الذي وقع فيه. لكن صراخ المرأة فاجأه:

" لماذا أتيت يا (سعيد)؟ أخبرتني للتو أنك مالك المعمل، وأن المال الذي سرق هو مالك. ثم وجدتك في غرفة ابنتي في وضع مشبوه. لا أعرف حقاً ما يدور في عقلك؟ بل أشعر أنني لا أعرفك. تغيرت كثيراً، لدرجة أنني أشعر بالخوف منك، من ملابسك الغالية، من سيارتك الفخمة، ومن نظراتك التي لم تعد تشعرني بالأمان. من أنت؟"

نطقت كلماتها بصوت عالٍ وهي في قمة الغضب والحيرة، فتحرك الجسد المغطى في سكون، وفتحت (نجاة) عينيها وهي تهذي باسم زوجها المظلوم: "(محمد)...(محمد). لتزيد من مشاعر الضيق والحنق في نفس (سعيد)، والذي تمالك أعصابه، وحاول أن يبدو هادئاً وهو يخاطب الأم المتوترة:

- زوج ابنتك لص خسيس. وضعت ثقتي فيه، ومنحته عملاً كان سيدر عليه الكثير، لكنه خانني، وسرقني بكل خسة. كل القرائن ضده، ولن تبرأ ذمته إلا في حالة واحدة. وهي أن أتنازل عن متابعته. سأفكر في هذا الأمر، لكن سيكون عليكما أن تأتيا عندي لتطلبا ذلك، وأفضل أن تأتي (نجاة) وحدها، فالأمر يهمها أكثر.

أخرج ورقة ورماها على السرير، وردد بتعالٍ:

- هذا عنوان المعمل. كلما فكرتما في الأمر فستجداني بانتظاركما. إلى اللقاء.

وغادر المكان، تاركاً وراءه امرأتين أسيرتين للدهشة والحيرة والقلق والدموع أيضاً.

نزل الدرجات بخفة، ليجد (الحاج) صاحب الدكان واقفاً في مدخل العمارة. ابتسم (سعيد) في سخرية وهو يمرر عينيه في جسد الرجل من الرأس إلى أخمص القدمين، وأخرج منديله ليسد به أنفه وهو يتجاوز الرجل، في حركة مستفزة ومهينة. فما كان من الآخر إلا أن صرخ في وجهه بانفعال واضح:

- الآن تغلق أنفك يا ابن الزانية.

هو الجرح القديم يستثار من جديد، ويخلف الكثير من الألم. مرت أطياف من الماضي أمام عينيه، وتذكر اللحظات الأخيرة لأمه. هذا اللعين يشتم أمه، الملاك الطاهر الذي منحه كل شيء يشتم الآن ويهان من هذا العجوز الحقير. لم يشعر إلا وقبضته تنهال على وجه الرجل في ضربات متتالية وهو يصرخ في هستيريا:

- أتشتمني أيها الوغد. أمي أشرف منكم جميعاً...جميعاً.

جرى بعض الرجال لفك النزاع، وأدخلوه إلى سيارته، بينما سقط الحاج متمرغاً في دمائه، وانطلقت السيارة بسرعة، مخلفة وراءها الكثير من الغبار، والكثير من نظرات الاستنكار والغضب.

امتلأت بذلته بقطرات من الدم، فبصق في قوة وهو يتذكر وجه العجوز المحطم. أوقف سيارته أمام متجر كبير، لشراء مناديل ورقية وماء. استقبله عجوز جالس وراء طوار، ابتسم له مرحباً فلم يرد ابتسامته، ربما ذكره بالعجوز الآخر. دلف إلى الداخل ليبحث عن مبتغاه، ولمحه.

(خالد) صديقه. تذكر للتو أنه وفي غمرة انشغاله بحياته الجديدة قد نسي رفاق الأمس، وأكثر الناس قرباً إليه، لكنّ واحداً منهم يقف أمامه الآن، نعم إنه (خالد). وصرخ باسمه، فالتفت الآخر بسرعة، وتسمر لحظة في مكانه يحملق بدهشة في ذلل الشخص الواقف أمامه، وسرعان ما تغلبت سنوات الصداقة والمحبة على ما غيرته الأيام في ملامح (سعيد) وهيئته، فتعرف الصديق على صديقه واندفع يعانقه في حبٍّ وودٍ واضحين.

همس (خالد) في أذن صديقه:

- أهذا طبعك يا (سعيد)؟ تنسى أعز أصدقائك. أين اختفيت؟ ولماذا؟ وكيف...؟

قاطعه (سعيد):

- اهدأ يا (خالد). المكان ليس مناسباً للحديث. أخبرني أولاً، ماذا تفعل هنا؟

تأمل (خالد) ملابس صديقه الأنيقة، وأثار النعمة البادية على ملامحه، واستشعر بداخله الكثير من الخجل وهو يجيب بأسى:

- أعمل. أحمل الصناديق والأكياس وأرص البضائع على الرفوف. عمل شريف يضمن لي ولأمي كسرة خبز. وأنت ماذا تفعل؟

"لِم تضحك في سرك يا (سعيد)؟ أهو الشيطان بداخلك يبعث من جديد؟ إنه صديقك المفضل، جمعتكما الحياة لسنوات طوال، بحلوها ومرها. لكنك

تتشفى بداخلك، وأنت تتفرج عليه يعيش الشقاء." تجاهل الرد على سؤال (خالد)، وسأله من جديد:

- ماذا عن (عبد القادر)، كيف حاله؟

- هو أيضاً يشتغل في هذا المحل. لكنه أكثر حظاً مني، فهو مكلف بشباك الأداء.

"حتى (عبد القادر) يعمل هنا. لطالما حدثنا عن الله والإيمان والسعادة، أهو سعيد الآن؟، من إجازة في القانون بتفوق، إلى عامل بسيط تحت إدارة عجوز أرعن."

رافقه (خالد) لمقابلة (عبد القادر). تماماً كما عرفه، بنفس الهدوء الذي يسكن الوجه الأحمر المكتنز، وبنفس الملامح التي تطغى عليها السماحة.

وصرخ (خالد) في مرح:

- مفاجأة يا (عبد القادر).

انتبه هذا الأخير، وتجلت الدهشة في عينيه وهو يتأمل الواقف أمامه، وسرعان ما اندفع نحو صديقه وهو يقول:

- أين أنت يا رجل، اشتقت إليك كثيراً يا (سعيد)؟

ارتاح الآخر في حضن صديقه، ونفذت إلى أنفه رائحة عطر زكية، وقال بهدوء:

- أهلاً (مستر جون)، هل مازال أحد يناديك بهذا الاسم؟

ضحك الثلاثة، وازداد وجه (عبد القادر) إشراقاً وهو يضيف:

- لم أسمعه منذ مدة طويلة. أخبرني، كيف هان عليك أن تختفي دون كلمة وداع، أو تخبرنا عن أحوالك، ومكانك. هل نسيت عهد الصداقة؟

- لا يا (عبد القادر) هي فقط مشاغل الحياة.

- الحمد لله الذي جمعنا من جديد. اليوم، سنتناول الغداء سوياً، أدعوكم لوجبة دسمة في بيتي. ردد (عبد القادر) بشغف.

سرت رعشة خفيفة في جسد (خالد) وهو يسمع دعوة (عبد القادر) للغداء. إنه موعد آخر مع السعادة، وتراءت أمام عينيه صورة (فاطمة)، تلك الساحرة التي زرعت في قلبه مشاعر رائعة. لكن(سعيد) بدد الحلم الجميل وهو يخاطبهما بجدية:

- اسمعا جيداً. هناك ما هو أهم من الغداء. منذ الآن عليكما أن تعرفا أنني تغيرت نحو الأفضل. صحيح أنني نسيت الكثير من الأشياء التي تذكرني بالماضي الأليم، لكنني لن أنسى عهد صداقتنا القوي. لذا سأعرض عليكما وظيفة أفضل وعملاً أحسن وبراتب أكبر. هيا، أخبرا ذلك العجوز أنكما ستودعانه، وثقا بي لن تندما على قراركما هذا.

لم يتردد (خالد) وهو ينزع سترته الزرقاء ويرميها بعيداً، ثم يتوجه نحو صاحب المحل، ليودعه بكلمات مقتضبة ويقتفي أثر (سعيد). بينما تسمر (عبد القادر) في مكانه مستغرقاً في تفكير عميق، ورفع رأسه للأعلى يدعو ربه في سره بأن يلهمه اتخاذ القرار الصحيح. ناداه (خالد) يحثه على القدوم، فتوجه بدوره نحو العجوز الذي تجاوزته الأحداث، ولم يستسغ فكرة ذهاب

(عبد القادر) فلن يجد رجلاً بمثل أمانته وجديته وبشاشته، لكن (المستر جون) اتخذ قراره، واعتذر بأدب للرجل الذي يكن له كل الاحترام، واتخذ مكانه في السيارة التي انطلقت بسرعة، ولسانه يردد في خشوع:

- توكلت على الله.

أما (خالد) فقد استغرق في أحلام اليقظة، وظل مبتسماً وهو يرى أحلامه قد اكتست بطعم الفرحة. في حين صمت (سعيد)، وسؤال يتردد في أعماقه:

- ماذا بعد؟

****

- تائهة، خائفة، وحائرة أيضاً. منذ زمن لم تخرج لوحدها، وحتى وإن خرجت فإن مقصدها في الغالب يكون السوق القريب من الحيّ، حيث تبتاع حاجياتها وتعود. أما بعد الزواج، فلم تخرج مطلقاً إلا برفقة زوجها الطيب. تذكرته فبكت بحرقة، ليس لأنه سجين، بل لكونه دخل السجن ظلماً، وسيقبع وراء قضبانه ثلاث سنوات.

توقفت الحافلة، ونزلت دون أن تفارقها مشاعر الحيرة والخوف. يثير الناس رعبها، لا تفهم لم في هذه المدينة يختفي بريق الأمان من بعض العيون، لتحل محله حمرة الغضب والشر. قرأت الورقة الصغيرة من جديد، وتوقفت أمام المكان المقصود. توجهت نحو الحارس، سلمته الورقة بيد مرتجفة بفعل التوتر، وزادتها نظرات الحارس توتراً.

دخلت، صعدت الدرجات القليلة، لتقف أمام السكرتيرة الحسناء والتي دققت النظر في ملابسها وملامحها، وتساءلت عن سبب قدومها ولقائها بالمدير. دعتها للدخول، فدخلت بتردد، ولما أغلقت السكرتيرة الباب وراءها، شعرت بقلبها يدق بعنف، وتذكرت زوجها السجين من جديد. وشعرت بالخوف. حتى وهي ترى صورة (سعيد) على المكتب، وتقرأ اسمه المكتوب بحروف ذهبية، إلا أن خوفها لم يفارقها. إنه (سعيد)، جارها

القديم، وابن المرأة التي كانت صديقة لأمها، والشاب الطويل الذي كانت تشعر بنظراته الغريبة نحوها، لكنها اعتبرته دائماً بمثابة أخ أو صديق فقط.
وظهر (سعيد)، كان بكامل أناقته ووسامته، تقدم نحوها ومد يده ليصافحها متعمداً أن يطيل المصافحة، لكنها استنجدت بما تبقى لها من قوة لتنزع يدها. جلس وراء مكتبه الفخم، وطلب منها الجلوس أمامه.
(نجاة)، الحب القديم، رسائلي التي مزقتها قبل أن تقرئيها، أحلام يقظتي التي كنتِ بطلتها دوماً، وكلام شباب الحي عنك. (نجاة) بسحرها وجمالها وفتنتها، هي اليوم أمامي، ملكي. انتبه إلى أن صمته طال، وانتبه أكثر لتوتر الشابة بسبب نظراته، فتحدث بنبرة هادئة:
- اسمعي يا (نجاة). ما حدث قد حدث، وتلك إرادة الله. الآن عليك أن تهتمي بنفسك وبأمك. فلا معيل لكما اليوم. لذا وجدت لك عملاً شريفاً سيمكنك من تدبر المال الكافي لتعيشا في كرامة. ستقومين ببعض أعمال البيت لدى سيدة محترمة، ومقابل أجر محترم. وثقي أنني سأكون دوماً بجانبك، أقصد بجانبكما.
شيء ما بداخلها يدعوها لتصديقه، ولكن إحساس غريب يطغى عليها بصفة أشد يجعلها تخاف من كلامه، ومن نظرات عينيه، ويلجم لسانها عن الكلام. واستطرد هو بنفس الهدوء:

- هذه ورقة تتضمن عنوان مقر عملك الجديد. ستجدين هناك سيدة محترمة ستعلمك المطلوب منك، ما عليك سوى التفاني في عملك، وستكون الأمور بخير.

تسلمت الورقة من يديه، ووقفت مستعدة للخروج. تعمد ألا يمد يديه هذه المرة مصافحاً، فاكتفى بنظرات ذات معنى، فهمت منها (نجاة) أنه ينتظر منها الشكر والامتنان وإلا بدت ناكرة للجميل. فنطقت بصوت خافت:

- شكراً جزيلاً (السي سعيد). أشكرك كثيراً.

وقف بدوره، واقترب منها أكثر، ثم وضع يده على كتفها وقال:

- لا داعي لشكري يا...

سكت وهو يضغط على كتفها قليلاً، قبل أن يكمل عبارته بصوت عميق: (نجاة).

أحنت رأسها، وهرولت نحو الخارج، تتابعها نظرات السكرتيرة التي لم يغب عنها توتر الفتاة وارتباكها، ما زاد من حيرتها وتساؤلاتها. بينما أخذت (نجاة) نفساً عميقاً وهي تغادر المعمل، فكأنما تخلصت من ثقل يجثم على صدرها، وأسرعت الخطى نحو بيتها لتبشر أمها بعملها الجديد.

****

- مرت الأيام. يخطف الموت أرواحاً كثيرة، لا يفرق بين رجل وامرأة، ولا بين غني وفقير، أو بين طفل وشاب. ويجثم الحزن على قلوب الكثيرين، وسرعان ما تمضغ الأيام جراح البشر وأحزانهم، لتستمر الحياة. تسود لحظات الفرح، وتزداد ضحكات الناس وابتساماتهم، يضحكون للشمس، للقمر، وحتى للمطر، وعندما يدخلون بيوتهم، يتذكرون أن عليهم توفير متطلبات الحياة لهم ولأبنائهم، ويعيدهم قِصَرُ اليد للكآبة والهَمِّ والغَمِّ.

حتى (الدار البيضاء) لم تعد تلك المدينة التي تشعرك بالراحة والأمان، تحولت إلى غول، كما في حكايات الجدة للصغار. مدينة لا ترحم الفقراء ولا يرحمها الأغنياء. وتغيرت أحوال أبطالنا هم أيضاً. فاقتنى (خالد) شقة في عمارة من العمارات الجديدة المتربعة في حي راقٍ، وأخذ معه أمه لتعيش معه، وشعر لحظتها بأن الحياة جميلة، واعتبر (سعيد) ملاكاً على هيئة بشر فهو الذي فتح له أبواب السعادة. وسكن (عبد القادر) بالقرب من صديقه، وكانت معه (فاطمة) التي اندهشت من فخامة الأثاث، ومن مساحة البيت وروعته. بينما حمد (عبد القادر) الله كثيراً، وردد أمام أخته بصوت خاشع: " ويرزقه من حيث لا يحتسب". وكان رزقاً وفيراً بالفعل. فقد أغدق

عليهما (سعيد) الكثير من العطايا، فنصبهما رؤساء لأقسام مهمة في شركته. حيث تكلف (خالد) بالمحاسبة والأمور المالية، بينما اهتم (عبد القادر) بالشؤون القانونية للشركة، وكان المرتب خيالياً. وبدأت (فاطمة) تلمح بعض التغيير في تصرفات أخيها الذي عانى كثيراً في حياته، وتحمَّل الكثير من مصاعب الحياة بصبر وإيمان وثقة في لطف الله، وآن له أن يستريح ويستمتع بحياته. فقررت في قرارة نفسها أن تبحث له عن عروس، ولتكن البداية من العمارة التي سكنوها حديثاً. أما (خالد)، فقد حكى لأمه عن سر قلبه الدفين، ودعت له بالتوفيق والصلاح، ولم يتبقَّ له سوى مصارحة صديقه بالأمر.

ازدادت سهرات (سعيد) عند (الحاجة)، واشتد سكره في إحدى الليالي، فنافس أحد زبائنها على فتاة قاصر، وتعالى صراخه ووعيده للحاضرين، فتدخل (بوشعيب) ليحمله إلى البيت، وهناك أكمل جنونه. كسر بعض الأثاث، وأغاظه ضوء الثريا فحطمها، ولم يهتمِمْ للدماء التي سالت من يده. وتأثرت الخادمة بحالة سيدها، فجلست قرب رأسه ترتل آيات من القرآن، ليزداد صراخه وهيجانه وهو يأمرها بالصمت.

كان الشيطان في أعماقه ثائراً، غاضباً، يناديه في قسوة:

لماذا تفعل الخير؟ لماذا منحت لصديقيك مفاتيح السعادة؟ ألم تمت أمك وحيدة في غرفة بئيسة؟ من اهتم بك وأنت تعيش المعاناة؟ من قدم لك يد العون وأنت في ذروة احتياجك؟ كلهم منافقون، خونة، كاذبون.

ترددت العبارات القاسية بداخله، ورنا للثريا المحطمة فوق رأسه بشرود، قبل أن يردد بضعف: نعم، كلهم خونة. ثم استسلم لنوم عميق.

****

- "آه يا (عبد القادر) مدير؟ ذكريات الطفولة، وأمنيات الشباب. ليالي الكد والاجتهاد، وجحيم الغربة وقسوة الاغتراب لأجل الدراسة. سنوات الشقاء والتعب، والأحلام الجميلة، والدعوات الصادقة. كنا نظن أن الحياة سهلة، وكلما كبرنا وازداد العمر إلا وتجلت أمامنا قساوتها، وكشرت على أنيابها لتخيفنا وترعبنا. تأكدنا أن أحلام الصغر من الصعب أن تتحقق في أرض تقتل الأحلام وهي في مهدها، فآمنا بالقدر وتركناه يرسم طريقنا آملين ألا يخذلنا. ورغم ذلك، فلم أتصور يوماً أنني سأصبح مديراً."

تجلت الفرحة في عينيه الواسعتين، وازداد الوجه حمرة واكتنازاً. لقد آمن طيلة حياته بالقدر، ففوض أمره إلى الله، وعاش عمره مستشعراً عناية الله له. واليوم، يتأكد من ذلك، فيمنحه القدر هبة تنير دنياه، وإن كان قلبه مازال معلقاً بالهبة الأكبر، جنة الفردوس. لقد علمته الدنيا أنها لا تؤتمن، واستغرب من أولئك اللاهثين وراء الملذات، ومن دموعهم لحظة الانتكاسات. وتذكر في لحظة أنه وفي غمرة انشغالاته بالحياة وبأمور أسرته قد نسي شيئاً مهماً، نسي نفسه. تكفي حياة الوحدة، بالأمس كان يتذرع بقصر اليد، لكنه لا يملك عذراً اليوم. إنه بشر مثل الآخرين، كلمات (خالد) وأحاديثه السابقة عن مغامراته، بقدر ما تثير حنقه وغضبه على

صديقه المتهور، بقدر ما تحيي تلك الرغبة الكامنة في أعماقه والتي كبح جماحها لزمن طويل. لكنه لا يستطيع تحمل الوجع الذي يخلفه ذلك الكبت طويلاً. فنداء جسده ما فتئ يتعالى يوماً بعد يوم، والرغبة في تكوين أسرة وإكمال نصف دينه تؤرق تفكيره أكثر وأكثر. فدعا الله في سره، وهو يهبط الدرجات القليلة بخفة ورشاقة، أن يرزقه بزوجة صالحة تملأ فراغه العاطفي.

التقى بـ(خالد) أمام باب العمارة، كان مميزاً ببذلته الأنيقة، "حقاً، إن المال يغير البشر". واتجها معاً نحو سيارة (عبد القادر) كما اعتادا أن يفعلا. رنا (خالد) بعينيه إلى السماء من نافذة السيارة، وبادر صديقه بصوت حالم:

- غريبة بحق هذه الحياة. من عاطل يطارد الذباب في فناجين القهوة وبين أعقاب السجائر الرخيصة، إلى حمال بضائع تحت رحمة عجوز مقيت. والآن... وضحك بمرح وهو يصرخ: -مدير عام بشركة ضخمة. حتى في أحلامي لم أكن لأحلم بذلك.

- إنها رحمة الله بعباده. لا ينقصنا سوى قليل من الصبر والإيمان، وستجد أن جميع المشاكل مهما عظمت ستهون. فالإيمان يفتح أمامك الطرق المسدودة.

- الصبر، الإيمان. منذ وعيت على الدنيا وأنا مثال للصبر. ومنذ أن دخلت الكُتاب في قريتي، وحفظت الكثير من السور القرآنية، وأنا أعتبر نفسي

مؤمناً. لكن، هل كان عليَّ أن أصبر **28** سنة لأصبح مديراً في شركة؟ عفواً يا صديقي، ما ينقص ليس الصبر والإيمان وحدهما، بل الكثير من الحظ، والقليل من الكبرياء، والتملق للكبار، والرشوة، والتمرغ في وحل الرذيلة والفساد، فتسرق وتنهب، وتزور وتحترف النصب والخداع. آنذاك لن تحتاج إلى عشرات السنين لتحقق أحلامك، بل هي من ستأتي إليك على طبق من ذهب.

- أعرف أننا لن نتفق يا (خالد). لكنني أعترف أنني كلما عانيت من ضيق أو هم إلا ولجأت إلى الله. وصدقني، لم يسبق لي أن عدت خائب الرجاء. لقد أخذتك الدنيا يا (خالد) فأنستك الآخرة.

- النار، الجنة، الحساب، الآخرة. أومن بكل هذه الأشياء، لكنّني أحتاج للحياة أولاً قبل أن أفكر في الآخرة. أكثر من عشرين سنة وأنا أبحث عن السعادة دون أن أجدها. لا في القرآن الذي حفظته، ولا في السجائر الرخيصة ولفافات الحشيش، ولا حتى في تلك البيوت البائسة حيث تباع الأجساد وتعشعش القذارة. المال، المال يا أخي وحده يفتح لنا أبواب السعادة.

- المال زينة الحياة، والعمل عبادة. وكما تُوفِّر لجسدك الأكل والشرب والمتع، فكر في روحك التي تحتضر ببطء وهي تفتقد لغذائها. خطؤنا أننا نحصر وجودنا في أجسادنا، أما الرّوح فنرميها في بحر النسيان، وحين تحفنا

المصائب من كل جهة، ونجد أنفسنا عاجزين عن التصرف، نرفع آنذاك أعيننا إلى السماء ونرجو رحمة الله. كأنما خلقنا لنتذكر الله في أوقات الشدة فقط.

- كفى من هذا الحديث يا (عبد القادر). فأنت لا تستطيع تغيير أفكاري، كما لا تستطيع تغيير الواقع الذي ينخره الفساد.

لقد وضعت قطيعة مع الماضي بمعاناته وقسوته، ولا أريد لليأس أن يحتل قلبي من جديد. لذا، دعنا نتطلع معاً للمستقبل، ونتجاوز نقاشنا هذا.

شعر (عبد القادر) بأن صديقه انفعل قليلاً، فابتسم في وجهه، وربت على كتفه بحنان وهو يقول:

- لا عليك يا (خالد). وعلى العموم، فلكم دينكم ولِي دين.

رمقه الآخر بنظرة مستنكرة، سرعان ما تلتها ضحكة مجلجلة. ضحكا معاً، وأكملا طريقهما نحو مقر عملهما الجديد.

****

- وصل (سعيد) مبكراً للعمل، وطلب رؤية (بوشعيب). فقدم هذا الأخير، وبدت عيونه أكثر انتفاخاً، فقد افتقد لنعمة النوم منذ زمن طويل. طلب منه الرئيس أن يحدثه عن أمور العمل، فبدأ (بوشعيب) بالحديث عن قرار سيده الأخير المتعلق بتعيين مسؤوليْن جديديْن في الشركة، ولم يخف انزعاجه من ذلك، متعللاً بقلة خبرتهما في تسيير شركة من هذا الحجم. وتدخل (سعيد) ليخبره أنه ذراعه الأيمن، ولا يمكن لأحد أن يحتل مكانه ولا مكانته، وأن مهمته تقتضي مراقبة (خالد) و(عبد القادر) ليكتشف عيوبهما ونقائصهما، وإذا تبين عدم كفاءتهما فإن مصيرهما الطرد.

ارتاح (بوشعيب) لثقة سيده فيه، واندفع يتكلم بحماس زائد عن تصرفات المستخدمين، ومردودية العمال، وما يدور في الكواليس. تم غير دفة الحديث نحو منزل (الحاجة)، فأخبره عن (الحاج) السكير الذي أصيب بنوبة قلبية ألزمته الفراش، وكيف التف حوله أفراد أسرته يبدون مشاعر الحزن والقلق، وفي أعماقهم يتمنون رحيله لاقتسام الكعكة. ثم تحدث عن عاشق الصبايا الذي تورط في قضية تزوير، وهو يعاني الأمرين وقد يسجن لسنوات طويلة. وضحك (بوشعيب) لتظهر أسنانه الصفراء وهو يقول:

- إنها لعنة الأطفال يا سيدي. وختم حديثه، بخبر يتعلق بـ(المعلْم) الذي ربح الملايين من صفقة، وأنه ينوي إقامة حفل بالمناسبة في بيت (الحاجة) و...

استوقفه (سعيد) بإشارة من يده، فنجاحات الآخرين تؤرقه، وتعيد له الإحساس بالضيق والحنق. إنه لا يريد السعادة للآخرين، لأنه لم يعشها يوماً، ورغم ما يملكه الآن من ثروة، إلا أنه مازال يفتقد الإحساس بالسعادة.

ضحكات (بوشعيب) تستفزه، كبرياء (نجاة) رغم عوزها واحتياجها يحنقه، ذاك النور يشع من عيون (عبد القادر) يخيفه، وتهور (خالد) يغضبه. طلب من (بوشعيب) الانصراف، وبقي وحيداً. فضرب بقبضتيه سطح المكتب، وصرخ بغضب:

- إنني وحيد.

"رغم كل المحيطين به، ورغم نظرات الاحترام والتقدير في عيونهم، ورغم مكانته بين أغنياء هذا البلد، إلا أنه يحس بالوحدة. وهو ما لم يشعر به أبداً برفقة أمه. سحرها لم يخب يوماً، صورتها، حركاتها، وحتى آهاتها عند الألم، وابتسامتها النادرة، كل ذلك كان يشعره بقلب حنون يضمه ويحيطه بالحب والحنان. ومن له غيرها؟ ومن سيمنحه ذات الحب؟"

وتذكر في حزن الوحدة التي عانت منها أمه في أواخر حياتها، وتذكر أيضاً شذرات من الماضي البعيد حيث كان طفلاً في مقتبل العمر، وكثرة الزوار

الذين كانوا يحلون ببيتهم ويقابلون أمه. حتى أباه لم يرَه يوماً، وكلما حاول أن يرسم صورة له في خياله إلا وأخفق. وهمسات الزملاء، وغمزات الجيران وهمساتهم، كل ذلك يزيد من حيرته وبؤسه. وخاله الوحيد، الذي أحبه لأنه منحه السعادة، مات وتركه وحيداً.

تطلع إلى ساعته، فوجد أن الوقت ما زال مبكراً، وشعر بأنه لن يقوى على العمل هذا اليوم، وأن لا رغبة له في مقابلة أحد. وقرر أن يتوجه إلى منزل (الحاجة) فهناك يمكنه أن يرتاح، ويزيح الثقل الجاثم على صدره. رغم أن الوقت مبكر، إلا أن المرأة لن تستطيع رده، فهو زبون مخلص، وسخي، ولا يمكنها التفريط فيه.

توقف أمام باب العمارة، وحياه البواب دون أن يتخلص من نظرة الدهشة التي ارتسمت في عينيه، فقد تعود على استقباله في الليل، ولم يتصور أن يزور المكان في مثل هذا الوقت. تجاهل نظرة البواب وتحيته، وصعد الدرجات بخفة متجاهلاً المصعد بدوره. توقف أمام شقة (الحاجة) وطرق الباب بهدوء. لم يتلقَّ أي رد، فأعاد الطرق بصفة أشد، وانفتح الباب ليطل منه وجه أصابه بالدهشة والرعب الممزوج باللذة. تضاربت أحاسيسه ومشاعره وهو يرى أمامه (نجاة). لقد نسي في غمرة انشغالاته أنه سبق وسلمها عنوان (الحاجة) لتعمل عندها في البيت. أما (نجاة) فقد شلت المفاجأة حركتها، وبدت في حالة مشفقة من التوتر والضيق والخوف أيضاً.

دفع الباب بهدوء، ودلف إلى داخل الشقة وهو يسأل الفتاة: أين (الحاجة)؟

ردت بكلمات متقطعة وبارتباك واضح: ليست هنا و...
لم يتركها لتكمل عبارتها، بعد أن أغلق الباب وراءه، فشلت الحركة لسانها أيضاً. استلقى على أريكته المفضلة، ودعاها أن تعد له مشروباً. ترددت أول الأمر، لكنها تذكرت أنها ليست سوى خادمة، ومن المفروض أن تلبي طلبات ضيوف سيدتها.
تابعها بعينيه وهي تتجه نحو المطبخ، وتردد صدى ضحكات شيطانية في أعماقه، ولمعت مقلتاه بذلك البريق المخيف. نزع سترته ورماها قربه، وفك ربطة عنقه بعدما سرت حرارة مفاجئة في ثنايا جسده. وأقبلت (نجاة) تحمل صينية، وضعتها برفق على مائدة أمامه، وهمت بالانصراف. لكنه أمسك يدها بقوة، فرنت إليه بنظرة رجاء وتوسل، لكنها لم تفلح في استمالة عطفه ولا رحمته، بل استمر في حركاته الوقحة وهو يجذبها نحوه بعنف، ولم يبالِ بصرخاتها ولا بمحاولاتها الميؤوسة للتخلص من قبضته.
مزق ثوبها في لحظة هيجان، وقاومت بكل ما تملك من قوة، وأصر هو على الاستمرار في وحشيته، فضربها بكل قوته. لم تتحمل الفتاة وقع الضربة فانهارت على الأريكة وشعورٌ طاغٍ بالوهن والضعف يسيطر عليها. بدت الصورة مضببة أمامها، لكنها ميزت حركات الجلاد وهو يفك أزرار قميصه، وأحست بثقل جسده وهو يرتمي فوقها بهمجية، حاولت أن تقاوم، لكنها افتقدت للقوة، فانهارت فاقدة للوعي. وضحك الشيطان كثيراً لحظتها.

عرق غزير يتدفق منه، ويداه ترتعشان. أحس بظمأ شديد، وتطلع إلى الساعة، فاكتشف أنه قضى حوالي الساعة في شقة (الحاجة) دون أن يشعر بمرور الوقت. ألقى نظرة على الجسد الملقى أمامه كأنه جثة هامدة، اقترب منها دون أن تصدر أية حركة، فتساءل في قلق: أتكون ماتت؟

انتفض من هول الفكرة، فارتدى ثيابه بسرعة، محاولاً أن يتجاهل ضربات قلبه المتسارعة، وتوتره الشديد. وطُرِق الباب. طرقات قوية ومتتالية. لم يدرِ ماذا يفعل، وعاد ليتساءل في قلق أكبر: أهي النهاية يا (سعيد)؟

صرخ صوت نسائي من الجهة الأخرى:

- ماذا تفعلين يا (نجاة)؟ افتحي الباب.

تنفس الصعداء وهو يسمع صوت (الحاجة)، ففتح الباب وانطلق مندفعاً نحو الخارج غير مبالٍ بنظرات المرأة التي ملأتها الدهشة، ولا بنداءاتها المتكررة له. هبط الدرجات بسرعة، وارتمى على مقعد سيارته ليحاول استرجاع أنفاسه، قبل أن ينطلق مسرعاً دون أن يعرف وجهته.

رن هاتفه، فحمله بيد مرتجفة، وسمع المتحدث:

- آلو. كان صوت (الحاجة).

ازداد ارتباكه فلم يرد واكتفى بانتظار الأسوأ. لكنها فاجأته بضحكة رنانة، وبنبرة مرحة أضافت:

- لم أعرف يوماً أنك من عشاق الخادمات.

أعادت له ضحكاتها بعض الهدوء، فسألها بنبرة مازال يطغى عليها بعض القلق: -كيف حالها؟

- مازالت تحت وقع الصدمة. لم أكن أتخيل أن هذه الفتاة التي أرسلتها لتعمل عندي ستثير جنونك لهذا الحد. هي بخير الآن، وقد تركتها نائمة.

ارتاح لكلماتها، وأغلق الخط وقد علت وجهه ابتسامة.

****

- لم يصدق للوهلة الأولى، فأعاد التأكد من جديد. تكدست أمامه ملفات قديمة وأخرى حديثة، وانهمك في العمل بجدية وتركيز. تفوقه في الرياضيات، ومهارته في الحساب، جعلاه لا يمل ولا ييأس وهو يمحص مستندات الشركة المتعلقة بالمصاريف والأرباح. لكن، ما يكتشفه يصيبه بالدهشة، أخطاء بالجملة تتضمنها هذه الحسابات. هل الأمر مقصود؟ أم هي أخطاء ناتجة عن عدم كفاءة المسؤول السابق؟

أحياناً يفاجأ بأرقام تفيد بأن المصاريف قد فاقت أرباح الشركة، ثم يجد في ملحق آخر أن الشركة حققت أرباحاً مهمة، وأن نسبة كبيرة منها توجه نحو الاستثمار في مجالات أخرى. وعندما يبحث عن هذه المجالات والأنشطة فلا يجد سوى لوائح لأسماء أشخاص وشركات صغيرة تزودها شركته بمعدات ومنتجات يفوق ثمنها بكثير ما هو مسجل في السجلات. وسبق له أن انتبه لوجود مستودع كبير تابع للشركة، وعندما سأل (بوشعيب) عنه، أخبره بأنه مخصص لتجميع الفائض من المنتوج. وظل ليوم كامل يبحث عن سجلات تهم هذا الفائض، نوعه، عدده، طريقة تصريفه... دون أن يجد شيئاً.

باختصار، هناك شيء ما يحاك بين هذه الجدران، هناك تزوير واحتيال واختلاسات، وذلك لا شك فيه. وقرر في قرارة نفسه، أن يخبر صديقه ومديره بالأمر. فهو يعرف (سعيد) منذ زمن، وشكلت صداقتهما الكبيرة فرصة ليتعرف كل واحد على طباع الآخر، وعلى الجوانب الخفية في شخصيته. و(سعيد) رغم هدوئه المبالغ فيه، ورغم الغموض الذي يسكن ملامح وجهه، وبالرغم من سرعة انفعاله وغضبه وبعض التهور يطغى على تصرفاته. إلا أنه لا يرضى بالظلم ولا يستسيغه، ولا يقبل الخيانة أيضاً. فقد شعرا معاً، في فترة من العمر، أن الوطن ظلمهم، وتركهم عرضة للضياع، رغم شواهدهم وتفوقهم. فما كان من (سعيد) إلا أن صب جام غضبه على الذين نهبوا خيرات البلاد ومازالوا ينهبونها، وصولا إلى (الحاج) الجشع والطماع صاحب الدكان في الحي البائس. لذا لن يتأخر في إخبار رب عمله بما يقع.

توجه مباشرة نحو مكتب المدير، وجد السكرتيرة الحسناء منشغلة بإعداد وثائق، فأخبرها برغبته في مقابلة (سعيد). لكنها اعتذرت بأدب وهي تعلمه بعدم تواجده. راقت له تلك اللكنة اللذيذة في كلامها، وأثاره الشعر الطويل والعيون الواسعة، فعادت ذكريات التهور ومغامرات الشباب لتغزو تفكيره، وطال تأمله في وجه الفتاة، فأحنت رأسها في خجل، وانشغلت بتنظيم الأوراق المتناثرة على سطح مكتبها، وإن كانت عيونها تخونها في لحظات، فتسترق النظر إليه لثوانٍ.

كان خبيراً في التعامل مع النساء، فاستطاع أن يقرأ في عينيّ الحسناء رغبة كتومة، ولم يحتج لكثير من الذكاء ليفهم أن (سعيد) أثار حيرتها. فهي فاتنة، لكن مديرها لا يأبه لفتنتها ولا لجمالها، وهي تحتاج لمن يعيد لها الثقة في نفسها، ويعيد لها الإحساس بأنوثتها وجمالها، وهو مدير مهم في الشركة، وشاب، و... وتراءت أمام عينيه صورة أخرى. عيون أوسع وأجمل، ووجه يشع منه النور والبريق كأن به ملايين النجوم، والشفاه المغلقة في إصرار كأنها تحمي الثغر المسكون بالسحر والفتنة. تذكر (فاطمة)، وتذكر صديقه (عبد القادر)، فصحا من وقع نزوته، وطلب من السكرتيرة، بنبرة حادة، أن تخبر (سعيد) بأن (خالد) سأل عنه. وحين انصرف، لم تغب عن بصره تلك الخيبة التي ارتسمت على وجه الفتاة، والتي تساءلت في قرارة نفسها:

- ألم يعد الجمال يستهوي الرجال؟

****

- بماذا سيبدأ كلامه؟ وكيف سيكون رد فعل (عبد القادر)؟ وهي...؟

تناسلت أسئلة كثيرة في عقله وهو يقطع الرواق المؤدي إلى مكتب صديقة، كان (عبد القادر) منهمكاً في عمله الجديد، وقد علقت وراء مكتبه وعلى الجدار لوحة كبيرة كتبت فيها آية كريمة: " وما توفيقي إلا بالله.'

تنحنح (خالد) بقوة، فرفع الآخر رأسه في هدوء، وارتسمت على شفتيه ابتسامة جميلة وهو يستقبل صديقه وزميله مردداً بصوت هادئ:

- مرحباً يا (خالد). أية ريح طيبة ألقت بك في ديارنا؟

استلقى (خالد) على أريكة وضعت وسط المكتب، وزفر في قوة كأنما يبعد ثقلاً جاثماً على صدره، وانتبه صديقه لحالة القلق والتوتر التي كان عليها، فاستفسره عن السبب، ليخبره (خالد) عن التجاوزات التي وقف عندها من خلال تمحيصه في الوثائق والمستندات. وما كان من (عبد القادر) إلا أم تنهد بدوره وهو يقول:

- كلنا ذلك الرجل. لقد تأكدت من سلامة الوضع القانوني للشركة، لكن ما يدهشني أنها شركة مساهمة، وهذا يعني أن لها مجلس إدارة، لكنه غير موجود، بل يعتبر (سعيد) هو المالك والمدير الفعلي. كما لاحظت أن عقود العمال والمستخدمين والتي تربطهم بالشركة، بمثابة قنابل موقوتة. فبإمكان

المسؤولين تسريح أي عامل أو مستخدم بذريعة المصلحة العامة، دون تحديد دقيق للمقصود بهذه المصلحة. باختصار، هناك أمور تحتاج إلى كثير من التوضيح.

- أنا أيضاً فوجئت بأخطاء كبيرة في حسابات الشركة. بل أكاد أجزم أن اختلاسات مهمة وقعت ومازالت تقع. لكنّني لن أستبق الأحداث، سأعرض الأمر على (سعيد)، وسنرى ما يمكننا فعله.

- من المؤكد أن هناك تلاعبات تحدث، وتحايل وتزوير ومقامرة بأرزاق العمال والمستخدمين، وهو ما لا يمكنني السكوت عنه. أنت تعرفني و...

قاطعه (خالد) بإشارة من يده، واقترب منه وقد علت ملامحه جدية مفاجئة:

- هناك ما هو أهم.

بدا الاهتمام على الوجه المكتنز، فنزع نظارته وتساءل بحركة من حاجبيه. فأردف (خالد):

- هناك موضوع يخصني. وأنت طرف مباشر فيه.

- ليست المرة الأولى يا (خالد)، فكل مواضيع حياتك تمر عبر بوابتي. أم أنك نسيت؟

- لا، ليس الأمر كما تتخيل. في الحقيقة، بدأت أشعر ومنذ مدة بأنني أحيا في فراغ، وتنتابني أفكار غريبة، وأعاني من إحساس مقيت بالضيق. أهرب إلى الشارع ومنه إلى المقهى لأنخرط في أحاديث بلا أهمية، وأحياناً مع أناس

لا أعرفهم، فقط لأحاول أن أنسى أحاسيسي تلك، لكنّني وبمجرد عودتي إلى البيت، إلا وأسقط فريسة للضيق والحزن من جديد. هناك شيء ما ينقصني لأستعيد راحة جسدي وصفاء روحي.

ندت ابتسامة عن (عبد القادر) وهو يستمع بانتباه لبوح صديقه، وخيل لـ(خالد) أن محدثه يقرأ أفكاره، ويعرف جيداً ما يرمي إليه، فزاد ارتباكه وتوتره وهو يردد بانفعال:

- اكتشفت أنني أحتاج لنصفي الآخر. في الحقيقة، أفكر في الزواج وتكوين أسرة.

هبّ (عبد القادر) من مكانه ليرتمي على صديقه ويحضنه في قوة وهو يردد بمرح:

- هذا أروع خبر سمعته منك يا (خالد). وتأكد أنك ستجد مني كل التأييد والعون في سبيل تحقيق ذلك.

انتظر (خالد) من صديقه الوفي أن يسأله عن الزوجة، لكنه لم يفعل، وظن في قرارة نفسه أنه يعرف ويتظاهر بغير ذلك، فتضايق أكثر، وسرعان ما عاد ليبعد الشكوك التي سكنت عقله، وهو يخاطب صديقه:

- لكنك لم تسألني عن العروس؟

- لابد أنها إحدى بطلات مغامراتك السابقة.

- لا يا (عبد القادر). هي كما سميتها مغامرات. كثيراً ما نضعف أمام رغبات أجسادنا، وننساق وراء شهواتنا، فنحاول أن نروي ظمأنا في علاقات

لا تستمر سوى لحظات، ونعود بعدها للبحث عن منبع آخر. لكنّني اليوم أحدثك عن الحب. صدقني يا (عبد القادر)، رغم كل ما تعرفه عني، فلم يسبق لي أن عشت الحب يوماً أو عرفته. لكن هذه التي سكنت عقلي وروحي منحتني هذا الشعور الجميل، وعلمتني معنى الحب في أرقى صوره.

أتعرف عمن أتحدث يا صديقي؟ إنها (فاطمة)، الآنسة (فاطمة) أختك.

تردد الاسم في عقل (عبد القادر)، ولم يدرِ لمَ تذكر أمه وأباه المريض، وأخاه الصغير الذي يحلم بدراجة؟ وتراءت أمام عينيه صور عديدة، صور قديمة عن ثلاثة شبان جمعتهم صفوف الدراسة ودروب الحياة. وبينهم (خالد)، هذا المتهور المجنون، كما سماه يوماً.

حدّق في وجهه بشرود، واستطاع أن يتبين صدق مشاعره من عينيه. إنه يعرف صديقه جيداً، ويعرف أنه رغم انحرافه وتهوره وطيشه، إلا أن بإمكانه أن يتغير نحو الأفضل. فمازالت في أعماقه بعض من براءة الطفولة، ولازالت في روحه الكثير من طيبوبة القرويين وسذاجتهم، وإيمانهم أيضاً. لقد غيرته ظروف الحياة نحو الأسوأ، وبمقدور الزواج أن يغيره نحو الأفضل. ولكن، (فاطمة)؟

عادت صورتها لتمر أمام عينيه كطيف جميل، هذه الوردة الجميلة التي ملأت حياته، وحياة أسرته عبقاً وبهاءً، والتي ملأت بيتهم هناك بـ(وجدة) بالكثير من أحواض الورود، هذه الفاتنة التي ينبض قلبها بالحب والحنان

والإيمان، الصبورة، الضاحكة على الدوام. إنها ملاك. وتحتاج إلى ملاك آخر يقدرها ويهتم بها.

استغفر ربه بعدما انتبه إلى أن الملائكة يحيون في السماء، وأن من حولنا هم بشر. وعاد ليتأمل في وجه (خالد) الذي كبل جمود صديقه لسانه هو أيضاً، ورمت به الهواجس نحو عالم الشك وخيبة الأمل. وتحدث (المستر جون) أخيراً، بعد أن استرجع ابتسامته الهادئة، فربت على كتف صديقه وقال وهو ينظر في عينيه:

- لن نستبق الأحداث. سأعلمها بالأمر، وبعدها سيكون للحديث بقية.

شعر (خالد) بالارتياح وهو يستمع لنبرة صديقه الهادئة، ولأنه أزال عن كاهله عبئاً ثقيلاً نأى بحمله كثيراً. وعاد (عبد القادر) ليضيف:

- اسمع. غداً إن شاء الله، سنتناول الغذاء جميعاً في بيتي. أنا وأنت و(سعيد). ولنأمل من الله خيراً.

رفع (خالد) يديه إلى السماء وردد بخشوع: آمين.

ثم غادر مكتب صديقه وهو ما يزال يستشعر تلك السكينة في نفسه، وصمم على أن يغير نمط حياته للأحسن، فغداً ستعيش معه فتاة هي أقرب للملائكة، فلمَ لا يكون هو أيضاً ملاكاً؟ أعجبته الفكرة رغم جنونها، فابتسم في ألقٍ وهو يدخل إلى مكتبه الفخم.

- كانت ليلة سيئة بحق. ظل خلالها يتقلب في فراشه، وكوابيس مرعبة تقض مضجعه. كما أن المطر الغزير في الخارج، وصوت الرعد المزلزل، زادا من توتره. نهض من فراشه بتعب، ليطالعه وجهه في المرآة، وجه شاحب افتقد النضارة، وتكونت هالة سوداء تحت عينيه، فتذكر (بوشعيب)، أيمكن أن يصبح مثله؟

استسلم للمياه الدافئة لعلها تنسيه ذكريات الأمس، وارتدى ملابسه التي اختارها بعناية، فقد اتصل به (عبد القادر) يدعوه للغداء، وعليه أن يكون جديراً بمكانته وأن يبدو في كامل أناقته ووسامته وهيبته. تعمد أن يتأخر قليلاً عن الموعد، ليكون آخر الواصلين، وليثير الانتباه أكثر.

استقل المصعد نحو الطابق الرابع، وسرعان ما وجد نفسه أمام (عبد القادر) الذي استقبله بحرارة، وبابتسامة عريضة زادت الوجه الأبيض المكتنز جاذبية. دلف إلى الداخل، وانبهر بجمال الشقة التي أضفت عليها يد خبيرة لمسات رائعة. وجد (خالد) قد سبقه، فحياه، ليرد الأخير:

- لقد سألت عنك البارحة. هل أخبرتك السكرتيرة؟

- كنت في مشوار عمل. ماذا حدث؟

- اسمع يا (سعيد)، أنت صديق مقرب، وفوق هذا أنت مديري، ولن أخفي عنك شيئاً. لقد قضيت وقتاً طويلاً في دراسة حسابات الشركة، وخرجت بخلاصة مفادها أن أمراً ما يحدث في الخفاء. باختصار، هناك من يسرق أموالك يا (سعيد).

"فعلتها إذاً يا (بوشعيب). لم أكن لأتفاجأ بذلك، فمنذ أول يوم رأيتك، عرفت أنك لص خسيس.". ردد (سعيد) في نفسه، قبل أن يرسم على وجهه مسحة الاهتمام والجدية وهو يسأل (خالد):

-أتعني أن هناك أخطاء مقصودة في الحسابات، يستفيد منها آخرون فينهبون ويختلسون أموال الشركة؟

- بالضبط. هناك أمر آخر يتعلق بتدبير الفائض المخزن في المستودعات. لم أجد أية ملفات أو مستندات تبين طبيعته ولا طرق تدبيره.

"قد بدأت تحشر رأسك يا (خالد) فيما لا يخصك. أعرف أن كثيراً من الأشياء غير قانونية، وأن (بوشعيب) قد أخبره يوماً عن تعمد إخفاء بعض الوثائق والمستندات للتهرب من أداء الضرائب، وللمتاجرة في السوق السوداء. أعرف أنني ألعب بالنار، لكنّني لا أهتم، لأن هذه النار لم تحرقني، بل منحتني المال والنفوذ والجاه."

نظر (سعيد) إلى محدثه بنظرة جامدة، وتحدث بهدوء غير متوقع:

- لا عليك يا (خالد). سأنظر في الأمر.

بدا الجواب غير مقنع بالنسبة لـ(خالد)، وحاول قول المزيد، لكن موضوعاً أهم كان يشغل باله أكثر، ويسيطر على مشاعره وتفكيره. منذ أن دخل إلى الشقة، وقلبه لم يكفِ عن الخفقان بقوة، وقد تملكه شعور غريب باللهفة، لهفة لرؤيتها، ولهفة لسماع الخبر المفرح من شقيقها.

تقدم (عبد القادر) ليجلس بين صديقيه، وتوجه بالكلام إلى (سعيد):

- في الحقيقة يا (سعيد)، هناك أمر مهم يتعلق بالجاب القانوني للشركة وعليك أن تعلم به، إن...

قاطعته ضحكة عالية انفجرت من أعماق (سعيد) وهو يقول بصوت متقطع:

- ما بكم أيها الحمقى؟ هل نسيتم في لحظة بؤس الماضي ومعاناته، وأصبحتم تتصرفون كأولئك المسؤولين الذين يقعون أسرى لأعمالهم. اتركوا عالم الشركة وهمومها، ودعونا نستمتع باللحظة. والحقيقة الوحيدة الآن أنني أشعر بجوع قاتل.

شارك (عبد القادر) صديقه الضحك وهو يتوجه مسرعاً نحو المطبخ لمشاركة أخته في إعداد المائدة، ومضى عقل (سعيد) يفكر في المشاكل التي أضافها لنفسه. ما كان عليه أن يقرب إليه هذين الفضوليين اللذين يحشران أنفيهما في أمور لا تهمهما. متى سيفهمان أن المال هو الهدف، وهو الوسيلة في هذه الحياة. أما الشرف والفضيلة والأخلاق، فهي كلمات لم تعد لها جدوى في هذا الزمان.

أقبلت (فاطمة)، حيت الجميع بأدب، ووضعت بعض الأطباق على المائدة، قبل أن تعود أدراجها. لم يدم الأمر سوى بضع دقائق، لكن بالنسبة لـ(خالد)، كأنها الدهر كله. لم يعرف إن كانت ارتدت ذلك الفستان مصادفة أم كان الأمر مقصوداً. فهو الفستان ذاته التي رآها به لأول مرة، كأنها تحيي معه ذكرى أول لقاء. وبدت في منتهى الرقة والفتنة وهي تضع الأطباق وقد حافظت على احتشامها، وأطرقت بعينيها نحو الأرض، حتى صوتها كان له نغم لذيذ، خلف في روحه جميل الأثر.

أما (سعيد) فقد اندهش كثيراً للموقف أمامه، لم يكن يتصور أن يجد امرأة في بيت (عبد القادر)، وأية امرأة؟

لم يفهم لم شعر نحوها بانجذاب رغم أنه لا يعرفها، ولم يسبق له رؤيتها. لكن شيئاً ما دفعه لأن يطيل النظر إليها، وبنظرة رجل في الثلاثينيات من عمره، استطاع أن يميز جمالها وسحرها. وتساءل من جديد: -ترى من تكون؟

تحلق الثلاثة حول المائدة العامرة بأصناف شهية من الطعام، وبادر (سعيد) مضيفه بنبرة عتاب:

- لم أكن أعلم أنك متزوج. ولم تخبرني بذلك أيها الخائن.

تفاجأ بضحكتين منفلتتين من صديقيْه، و(عبد القادر) يجيب:

- أتمنى حقاً أن تكون زوجتي، لكنّني لا أستطيع الزواج بها، للأسف.

وأضاف (خالد) بلكنة مرحة:

- لكنك لا تستطيع أن تنكر بأنك تحبها.

- هي تملك فؤادي، وتأسر روحي.

تضايق (سعيد) وهو يرى صديقيْه يتبادلان الحديث المرح، وبدا كساذج لا يفهم ما يجري حوله، وكاد ينفجر في وجهيهما ويعيد تذكيرهما بأنه هو السيد و...

أيقظه (خالد) من نوبة غضبه وهو يقول:

- الآنسة (فاطمة) أخت (عبد القادر).

"آه. هي أخته إذاً. بماذا يحدثك عقلك؟ وما تلك الأفكار المجنونة تغزو تفكيرك؟ لا... إنها أخت صديقك. لمَ يتراءى أمام عينيك بيت (الحاجة)؟ وتلك الأطياف لنساء كثيرات؟ إنها مختلفة. شيء فيها يدفعك للخوف منها. أهو الشيء ذاته الذي يخيفك في أخيها؟ منذ أن عرفت ذلك الشاب، وأنا أشعر أن بداخله، وحوله، قوة خفية. لا تظهر في كلامه الهادئ، ولا في ضحكاته المرحة، ولا حتى في صوته الوقور وهو يرتل القرآن. بل ربما تبدو في ذلك كله، وفي بريق عينيه الواسعتين أيضاً. لكنه يريد أخته الآن. كما أراد يوماً (نجاة) ونالها، وكما أراد أن يطفئ بعضاً من النار المستعرة بداخله، فوجد الترياق عند (الحاجة). لكنه سئم ذلك المكان، وخاصة بعد حادثة الأمس، ويريد أن يفتح صفحة جديدة. وفي لحظة تساءل: لمَ لا أتزوج؟ راقت له الفكرة، ونشب صراع مرير في داخله بين عقله وجسده وقلبه وشيطانه. "لا... لن يلهيني الزواج عن عملي، ولا عن سهراتي. بل سيمنحني

صورة الرجل المتزن والمسؤول، وستكون (فاطمة) بمثابة الصورة الجميلة التي تبعد عني شكوك الناس وحقدهم علي. ولا أظن أن (عبد القادر) سيرفض طلبي. فقد جلبت له السعادة بمالي، وبمالي أيضاً سأنال أخته. نعم، سأتزوج (فاطمة)."

انقض الجميع على الطعام. كان (خالد) يأكل بشهية مفتوحة، لأن الأكل من صنع يديها، ويجد في كل لقمة لذة تضاهي ما قبلها. أما (سعيد) فقد غمرته فرحة مفاجئة، وتفتحت شهيته أكثر، فتسابق مع (خالد) على افتراس الأصناف اللذيذة. بينما شعر (عبد القادر) بسعادة غامرة وهو يتأمل فرحة صديقيه، واجتماعهم من جديد. وحمد الله في سره على النعمة التي يحيون فيها، بعد سنوات من المعاناة والشقاء.

استلقى الثلاثة على أريكة بعد الوجبة الدسمة، وسرعان ما استأذن (سعيد) في المغادرة لغرض يتعلق بالشغل، وقرر (خالد) مرافقته، لأنه لم يجلب سيارته. وقبل المغادرة، صافح (سعيد) (عبد القادر) شاكراً له الدعوة الكريمة، وهمس في أذنه:

- لن تكون زيارتي الأخيرة. أعدك بذلك.

ضحك الآخر بصوت عالٍ وهو يرد:

- لقد فعلتها (فاطمة) إذاً. سحر طعامها سيجعلكما تزعجانني دائماً.

خرج (سعيد)، وتأخر (خالد) في الخروج وقد انهمك في حديث طويل مع (عبد القادر). واستطاع (سعيد) أن يميز من بعيد علامات الفرح والسعادة على محيا (خالد)، دون أن يعرف موضوع الحديث.

استقلا السيارة معاً، وأشعلا سيجارتين، وانخرطا في صمت كئيب. كانت قطرات المطر تضرب زجاج السيارة في رفق، بينما غرق كل واحد في بحر أفكاره. فكر (سعيد) أن يفشي سره الجديد لصديقه، ويخبره بأنه خرج من شقة (عبد القادر) وصورة (فاطمة) تلاحقه، وتستحوذ على عقله، لكنه عدل عن الفكرة، وعاد ليتأمل الطريق أمامه، ويغرق في نشوة خيالاته من جديد.

****

- فتحت عينيها ببطء وهي تشعر بألم في رأسها. تطلعت فيما حولها، وحاولت أن تحدد المكان الذي توجد فيه، لكنها لم تستطع، فاستسلمت للتعب المسيطر على جسدها، وللحيرة التي شلت حركتها، قبل أن تسمع صوتاً أنثوياً ذا نغمة مميزة وهو يخاطبها:

- حمداً لله على سلامتك.

رنت بعينين منتفختين لمحدثتها، فلمحت (الحاجة) قادمة نحوها وهي تحمل صينية الطعام. فلم تتقبل (نجاة) أن ترى سيدتها في ذلك الموقف، فحاولت النهوض، لكن المرأة أعادتها برفق إلى السرير وهي تقول بلطف:

- ما زلت متعبة، فلا ترهقي نفسك الآن.

أدهشتها الطريقة التي تتحدث بها سيدتها، وعادت الحيرة لتسيطر على روحها من جديد ونظرات المرأة تفحصها بعيون ثاقبة، وتتعمق في تفاصيل جسدها الشبه عاري. واستلقت على السرير بعد أن شعرت بدوار شديد، وحاولت أن تسترجع الأحداث السابقة لتفهم ما وقع. وتذكرت، (سعيد)... الأريكة... أنفاسه اللاهثة... ثوبها الممزق... وصرخت. صرخة ألم وندم، وانهمرت الدموع من عينيها، فقد دنس (سعيد) جسدها وهو أعز ما

تملك. تركتها المرأة تفرغ مأساتها في الدموع المنهمرة، ثم خاطبتها بهدوء لا يتناسب واللحظة:

- اسمعي يا (نجاة). إنك شابة وجميلة، ولا يمكنك مواجهة هذا العالم المتوحش، ولا التعامل مع الوحوش التي تحيا بيننا. أنت لا تستحقين أن تكوني خادمة، فجمالك ورشاقتك يؤهلانك لتحقيق النجاح والثراء. فكري في حياتك، وفي نفسك. ما زلت في ريعان الشباب، فحاولي الاستمتاع بربيع حياتك. ثقي بي، وسلميني نفسك، فأنا من سيفتح لك أبواب السعادة.

كان لكلمات (الحاجة) وقع السحر على الشابة التي افتقدت القدرة على التفكير أو الجدال، ووجدت نفسها منقادة للمرأة وهي تقودها نحو الحمام، وعندما نزعت ثيابها، شعرت كأن جسدها ملطخ ببقع سوداء، بالعار، والقذارة أيضاً. تكلفت (الحاجة) بكل شيء، وتحولت (نجاة) في لحظة إلى فتاة فاتنة، بعدما زادت المساحيق ولمسات اليد الخبيرة من سحرها، وعندما رأت نفسها في المرآة، بدا لها أنها تغيرت كثيراً، وأرعبها ذلك البريق الذي سكن للتو في عينيها، بريق فتاة ضيعت كل شيء، وهي مستعدة لتضيع الكثير.

دعتها (الحاجة) للتقدم. خطوة، خطوتان، ثلاث... ثم توقفت. لم يسبق لها أن رأت هذا الحشد الكبير يملأ المكان، فقد اعتادت أن تنهي أشغالها وتغادر قبل حلول الظلام. نفذت رائحة غريبة إلى خياشيمها، فشعرت

بالغثيان، لكن يد (الحاجة) أنستها إحساسها المزعج وهي تجرها بقوة نحو مكان جلس فيه رجل، لم تستطع لحيته البيضاء الكثة أن تخفي التجاعيد التي ملأت وجهه الأسمر، واحتلت شامة الصلاة مساحة كبيرة في جبهته. ظنت (نجاة) أن الرجل ولي من أولياء الله، وتذكرت الفقيه الذي زارته يوماً مع أمها ليشفيها من كوابيس تؤرقها. أخافتها عيون الرجل الأسمر الجاحظة، لكن (الحاجة) أجلستها قربه رغماً عنها. أبتسم الرجل، فردت بابتسامة بلهاء. حمل كأساً من طاولة أمامه وقدمه لها، حكايات أمها القديمة عن بركات الأولياء جعلتها تتقبل هدية الرجل، وتفرغ الكأس في جوفها. وكتمت صرخة كادت تنفلت من بين شفتيها وهي تشعر بالنار تحرق حلقها وصدرها وأمعاءها، وسعلت بقوة. ضحك الرجل، وناولها كأساً آخر، "لن يطفئ النار بداخلي إلا نار أخرى"، رددت في نفسها. ثم تجرعت الكأس الثالثة، فالرابعة. وبعد لحظات، كانت تشارك الرجل الضحكات والرقص، قبل أن ترافقه لغرفة، وتلطخ الجسد مرة أخرى.

****

- ضاق (سعيد) ذرعاً بلحظة الصمت الطويلة، فبادر صديقه:

- ما بك يا (خالد)؟

وكأن السؤال أيقظه من حلم جميل، فقد انتفض بقوة وهو يتساءل بدهشة:

-ماذا؟ ماذا؟

بدت أسنان (سعيد) الناصعة البياض وهو يضحك ملء فمه:

- أكيد أنك كنت تحلم، أم لعله وقع المخدر؟ أما زلت تتعاطى المخدرات يا (خالد)؟

" لماذا تذكرني بأيام أحاول نسيانها؟ أمامي الآن مستقبل مشرق، أحاول أن أزرع فيه ورود الخير والفضيلة والحب، أما الماضي فقد كان قاسياً. في لحظة ثرت على نفسي وعلى الأوضاع من حولي، ثورة مجنونة كنت ضحيتها الوحيدة، وأنا أنال من صحتي وروحي. لكنني اليوم لا أرى سوى طيفها، وعينيها تدعواني للابتعاد عن ذلك المستنقع الآسن، لأبدأ حياة جديدة ملؤها الأمل والإيمان."

انتبه لنظرات (سعيد) الحادة، وتذكر أنه تأخر في الرد عنه، فرد بحماس:

- لا. ليست المخدرات يا (سعيد). فقد تركتها منذ أن عرفت-بفضلك- البذلة والسيارة، ومنذ أن شعرت بأني أحيا مثل البشر. لكنّني فعلاً كنت أحلم.

" الآن أصبحت تحلم؟ منحتكما الكثير كما قلت، وحتى لذة الحلم، ومع ذلك لم أسمع منكما عبارات الشكر والامتنان كما يجب أن تكون. أنتما بائسان، لأنكم عشتم الفقر ونشأتم فيه وتشبعتم به، وأشد ما يخيفني هم أولئك البؤساء الذين يصبحون أغنياء فجأة."

وتذكر أسئلتهما عن أمور تهم الشركة، واطلاعهما على الكثير من الأسرار التي كان وحده و(بوشعيب) يعلمان بأمرها، لكن فضولهما الزائد أصبح يثير حنقه وغيظه. طال صمته هو أيضاً، ولاحظ نظرة التساؤل في عيني صديقه، كأنما يستغرب من عدم تعقيبه على كلامه. فغيّر دفة الحديث وهو يسأل من جديد:

- قل لي يا (خالد)، ألا تفكر في الزواج؟

ظنَّ (خالد) في قرارة نفسه، أن صديقه يعلم كل شيء، وأن لسان (عبد القادر) قد خانه فأفشى سره، وشعر في اللحظة ذاتها برغبة في الحديث حول الموضوع، ليزيح عن كاهله بعضاً من عبءٍ مناجاة نفسه. فرد بصوت حالم:

- بل قل إني مقبل على الزواج. وجدت المرأة التي يمكنها أن تعيد الطفل الذي كنته، وأن تنقي ذاتي من كل ما علق بها من آثام ومساوئ، وتمنحني

الرغبة في الحياة من جديد. ذاك السحر يحيط بها، يجعلك تحبها وتحترمها وتقدرها، ولن أحدثك عن جمالها وطيبتها. باختصار هي ملاك.

عدد (سعيد) صفات زوجة صديقه المستقبلية، فبدا له أن هذا الأخير قد أصبح شاعراً ينطق بما لا يوجد، ويلقي الكلام على عواهنه. وهل تحيا الملائكة بيننا؟ وتذكر (الحاجة) وهي تمثل دور التقوى في محطات من حياتها رغم أنها في الحقيقة خادمة للشيطان، وتذكر الحاج الملتحي وهو يرقص في منظر يثير الاشمئزاز، تذكر نساء الحي وتصرفاتهن الوقحة، وتذكر (نجاة)، ألم تكن يوماً ملاكاً هي أيضاً قبل أن يلطخ جسدها؟ صحا من أفكاره على صوت (خالد) وهو يسأله:

- لم تسألني عن العروس؟

- وهل أعرفها؟

- بالتأكيد. تذكر أجمل طعام تذوقته في حياتك، وستعرف أن من أعده هي ملاكي الساحر.

- لقد أكلت أطعمة كثيرة، وفي أماكن متعددة، ولا أستطيع تحديد الطعام الأكثر لذة و...

صمت، فكأن صفعة قوية لطمت خديه معاً فصارا حمراوين من الانفعال والدهشة والتوتر. أجمل طعام؟ ما زال يحس بذلك الطعم المميز في لسانه، ويتذكر كيف ارتمى على الأطباق في شراهة. أيمكن هذا؟ ونظر نحو صديقه بحدة، فتساءل (خالد) عن سر تلك النظرة المخيفة، وظن أن

(سعيد) قد سئم من ألغازه وينتظر منه أن يخبره الحقيقة بلا مقدمات. فتكلم (خالد) وعيناه تنظران إلى سقف السيارة، كأنما يعيش حلمه الوردي من جديد:

- إنها (فاطمة) يا (سعيد). أخت (عبد القادر)، هي زوجتي المستقبلية.

نزل الخبر على (سعيد) كالصاعقة، ولم يخف توتره وهو يزيد في سرعة السيارة بحركة لا إرادية. نفس الفتاة التي أرادها لنفسه، له وحده، ها هو صديقه يفشي سره الكبير أمامه ويعلنها زوجة له. إنها خيانة، نعم. ما كان يجدر بهما دعوته للغذاء دون إخباره عن حقيقة الأمر، بل ما كان يجب عليها أن تظهر أمامه لتخلف ذلك الأثر الجميل في فؤاده، فيعيش الحلم الجميل، الذي وأده (خالد) وهو مازال في مهده. لكنه يريدها، وهو وحده يستحقها. وعادت تلك الصرخات الشيطانية لتزلزل أعماقه. فأوقف السيارة فجأة، ونظر إلى (خالد) الذي بدا كطفل تسلم للتو لعبته المفضلة، فانفرجت أسارير وجهه عن ابتسامة فرح ولهفة. تأمله طويلاً، وبصوت خافت بادره:

- مبروك يا (خالد).

عانق الآخر صديقه، وكاد هذا الأخير يدفعه بعيداً، لكنه تمالك نفسه، وبرقت عيناه بذلك البريق المخيف، وضحك الشيطان في أعماقه أكثر.

27

- انشغلت بجمع الأطباق من المائدة، بينما جلس يتابعها بعينيه، وفي عقله يتردد ذلك السؤال: "كيف أبدأ؟ وماذا أقول؟". وسرعان ما أيقظته من حيرته وهي تسأله بصوت جميل النغمة:

- لم تخبرني يا (عبد القادر)، هل أعجبكم طعامي؟

استرخى في جلسته، ووضع يده على بطنه وهو يجيبها بمرح:

- يمكنك أن تسألي الأطباق، فلم يتبقَّ فيها شيء. لا شك أن (خالد) و(سعيد) قد تذوقا ألذ طعام في حياتهما، ومن المؤكد أنهما ما يزالان يتحدثان عنك لحد الآن، أقصد، عن طبخك.

صمتَ، ولم ترد هي على كلماته. لم يجد (عبد القادر) ما يضيفه، بعد أن مرر بعضاً مما يؤرق باله بين السطور، أما هي، فلم تكن بذلك الغباء حتى لا تفهم ما يرمي إليه شقيقها. فقد استشعرت في تصرفاته الأخيرة ما ينبئ عن شيء يؤرقه، وعن كلام يتردد في البوح به. اعتقدت في البداية أنه وجد أخيراً من تشاركه الحياة، وظنت في قرارة نفسها أنه يجد حرجاً في التطرق إلى الموضوع حتى لا تفهم أنه يدعوها إلى المغادرة. وفكرت في دفعه للحديث، فهي لن تكون أبداً حاجزاً أمام سعادته. لكن، وبعد وجبة اليوم، وقبيل مغادرة الضيوف، انتبهت للحديث ذي الشجون الذي دار بين

أخيها و(خالد)، واستنبطت من تعابير وجهيهما وحركات يديهما أن شيئاً ما يدور، وأنها ربما تكون موضوع النقاش.

- (فاطمة). صاح (عبد القادر) فجأة وهو ينهض من أريكته، ويقف أمامها بذات الوجه المكتنز، الذي لا تفارقه الابتسامة الحلوة. وقال بهدوء:

- أريدك في موضوع هام.

"ها هي شكوكي تنقلب إلى حقائق.". - خيراً إن شاء الله. نطقت عبارتها وهي تحاول إخفاء رعشة مفاجئة.

- اسمعي يا (فاطمة). لن أمثل دور الأخ الكبير والمتحكم في مصير أخته. فلا أخلاقي، ولا ديني يسمحان بذلك. وقد تعلمت منذ زمن بعيد، أن أكون صديقك أولاً. وكثيراً ما أسديت لي النصيحة رغم صغر سنك. ووضعت لمستك الساحرة على بيتي لتجعلي منه آية في الجمال والفخامة. لكن من المفروض أن تفكري في نفسك أيضاً، فقطار العمر لا يعرف الانتظار، وقد اقتضت سنة الحياة أن كل نفس تحتاج لزوج يؤنسها ويعينها ويؤسس معها أسرة. وقد وجدت لك زوجاً، أقول وجدت، والاختيار يعود إليك أولاً وأخيراً.

أحنت عينيها في خجل، واختلطت العبارات في عقلها ولسانها دون أن تجد القدرة على الجهر بها.

- هل تفكرين في موضوع الزواج؟ أم أنك لا تعيريه اهتماماً الآن؟ سألها من جديد وهو يضغط على كلماته كأنما يبذل مجهوداً كبيراً في مناقشة موضوع مماثل مع أخته الصغرى.

- لقد تجاوزت العشرين يا (عبد القادر). أجابت باقتضاب، لكن بكثير من العمق.

- أنت إذاً تفكرين في الموضوع.

- لن أكذب عليك أو على نفسي وأجيبك بالنفي. لست سوى فتاة، لي مشاعري وأحاسيسي وأحلامي. ولا يمكنني أن أعيش كراهبة طوال حياتي.

ضحكت، فتجلت الأسنان البيضاء المتناسقة كلآلئ تزين فمها، ورسمت مع شفاهها الوردية لوحة من الفتنة والألق.

ارتاح بعض الشيء وهو يسمع جوابها ويستمتع بضحكتها الساحرة. وطرأ له خاطر مزعج، ماذا لو كانت في عقلها صورة شخص ما؟ لكن، بالنسبة لفتاة في قمة الالتزام، ورقي الأخلاق، فلا يمكن تصور ذلك؟ وماذا لو لم يرق لها (خالد)؟ طال صمته، وتوجست أخته من لحظة السكون المفاجئة، فأسرع بالقول:

- تحدث معي (خالد) في موضوع الزواج. وقد أبدى رغبة صادقة في الزواج منك. فما رأيك؟

خفق قلبها بعنف وهي تسمع الاسم، ومضى عقلها لأول يوم قابلت فيه (خالد). لم يكن من عادتها أن تدقق النظر في أي كان، ولكنّ شيئاً ما

جعلها تلتفت نحوه، لتفاجأ بعيون خضراء صافية تدقق النظر فيها، بكثير من الحب والحنان. لن تنكر أنها عاشت مع تلك النظرة ردحاً من الوقت. وكلما تحدث شقيقها عن صديقه ذاك إلا وعادت نبضات قلبها لتثور، وصورة العيون الخضراء الصافية لتغزو تفكيرها.

كيف شغلها هذا الفتى؟ وكيف ملك تفكيرها؟ وكيف احتل جزءاً كبيراً من قلبها؟ لا تعرف الإجابة حقاً.

رنت لأخيها بنظرة معبرة، وقالت:

- إنه صديقك منذ زمن، وأنت أعلم بأخلاقه وصفاته، وأرجو أن تحدثني عنه بصراحة.

"ماذا ستقول يا (عبد القادر)؟ إن الصراحة تجرح أحياناً، لكنك لست كاذباً ولن تكون كذلك. من حقها أن تعرف كل شيء عن زوجها المستقبلي، وحتى (خالد) طلب منه أن يخبرها كل شيء." فتحدث:

- هو فعلاً صديقي المقرب. ولم يحدث يوماً أن فكرت في الابتعاد عنه. فبالرغم من أنه يدخن، وفي فترات الشباب كانت له مغامرات طائشة وأخطاء كثيرة. إلا أنني، وكلما جلست معه، إلا ولمست طيبوبة قلبه. فقد عانى الكثير في طفولته، وربما لذلك ثار على واقع قاس لم يرحمه يوماً. لكن في أعماقه ما زال يحيا ذلك الطفل القروي البسيط والمثقل بالحنان والسذاجة والبراءة. وما فعله (خالد) لأمه، كفيل بأن يجعل الله عز وجل

يغفر له الكثير من خطاياه. وقد أكد لي أنه سيتغير، وسيغير الكثير من عاداته السيئة، فهو، وكما قال، لن يتزوج امرأة، بل ملاكاً.

شعرت في قرارة نفسها بأنها تعطف على ذلك الطفل القروي لأنه عاش الكثير من المعاناة، لكنها غاضبة من الشاب المتهور والطائش، كما أنها، وهذا هو الأهم، تجد في داخلها ميلاً غريباً لهذا الرجل الطيب والأنيق. سألت عقلها فأجاب: هو صديق أخيك، ولا يمكن أن يكون سيئاً. وسألت قلبها، فانتفضت نبضاته، واحمرت وجنتاها وهي تجيب بخجل أنثوي لذيذ:

- ليفعل الله ما فيه الخير.

- نعم أو لا؟ تساءل بلهفة كما لو كان هو المعنيّ بالأمر.

- ربما لو بحث في الأرض كلها عن أفضل الرجال، فلن أجد من هم أفضل من المقربين إليك. فأنت أيضاً ملاك يا أخي.

- موافقة إذاً. أسأل الله أن يديم عليك السعادة والهناء.

ارتمت في حضن أخيها في ود واضح، وأخذ يعبث بشعرها الناعم في حنان، كدأبه معها وهي طفلة، هناك في البيت الكبير في (وجدة). تراءت أمامه صور الأم والأب المريض والأخ الأصغر، فشعر بدمعة حنين تترقرق من عينيه، رفعت الأخت رأسها، وسرعان ما انتقلت إليها العدوى، فأجهشت بالبكاء، وضمها إليه في قوة، ولم تعد تسمع سوى شهقاتهما التي اختلط فيها الفرح بالاشتياق والحب بالأمل.

- ساد الظلام أرجاء المدينة، ولم يفلح الضوء الشاحب والمنبعث من مصابيح محتضرة في إزالة العتمة. وغاب القمر عن السماء، فحزن العشاق على غياب ملهم أشعارهم، وشعر الكثيرون ممن يعشقون الظلام بالفرحة والحبور، فاليوم يتجدد موعدهم مع الشر، ومع الشيطان. يعرفون أن أعمالهم دنيئة، فيحتمون بالظلام، وينسون أنهم وإن اختبؤوا عن عيون البشر، فهناك عيون لا تنام ولا تغفل. وبدت الطرقات فارغة، إلا من متسولين وأطفال مشردين مرميين على الجنبات، منهمكين في استنشاق مخدر رخيص من أكياس قذرة، يتوهون في أحلامهم، يقتنصون لحظة انتشاء لا تدوم طويلاً، وسرعان ما يصحون على واقع مر يذيقهم العذاب والشقاء. وجلس آخرون في أحياء منسية، وربما منفية، حيث تختفي الآدمية وتتجلى قسوة الوطن. يحتسون أسوأ أنواع الخمور وأرخصها، ويعلو الصراخ ويشتد، وتنطلق الشتائم من ألسنة فقدت اتزانها، يشتمون الحياة، والوطن، والمسؤولين، وأنفسهم أيضاً. وفي قمة نشوتهم، يستسلمون لرغبات مكبوتة ومجنونة، لم يكونوا قادرين على تنفيذها وهم في حالتهم الطبيعية، لكنها تنفلت الآن من اللاوعي، وتتحرر من قيود العقل، فيطعنون أنفسهم بالسكاكين، كأن منظر الدماء وحده يعيد لهم سكينة النفس.

وفي بيوت أخرى، اجتمع أناس منحتهم الحياة الكثير، وبدا من هيئاتهم ولباسهم وأصناف الطعام الموضوعة أمامهم، أنهم أبعد ما يكون عن أولئك المشردين والسكارى والثائرين على الزمن. وضعت أمامهم أرقى ماركات الشراب، وسرعان ما استسلموا هم أيضاً لمفعوله، فترنحت الأجساد، وتعالت الشتائم، وانتشرت الوقاحة، لحظتها اشترك هؤلاء مع أولئك، الكل في بحر الرذيلة يسبح.

وفي واحدة من هذه الشقق، جلس (سعيد)، كان في قمة أناقته ووسامته. كانت (الحاجة) في استقباله، وهي تقدم له كأساً باذخاً تحية لضيفها الكبير. ولم يتأخر عن رد الجميل وهو يقدم لها هدية غالية أثارت إعجابها، فجرته إلى وسط القاعة، وصاحت بصوت أثر عليه الشراب:

- انظروا ماذا قدم لي (السي سعيد). من منكم فكر في ذلك من قبل؟ لستم سوى حفنة من المنافقين والقوا... و....

أطلقت العنان للسانها في شتائم بذيئة، دون أن يبالي بها أحد، ففي هذا العالم لا قيمة تذكر للشتائم.

مازال (سعيد) مسترخياً على الأريكة الجلدية، يستمتع برؤية الأجساد المتراقصة في حلبة الرقص، ويتلذذ بطعم الشراب الفاخر الموضوع رهن إشارته. ولاحت له صورتها أمام عينيه، (فاطمة). كانت أمامه عشرات الفتيات، وأجساد فقدت سحرها من كثرة ما لطختها الأيادي، جمال مصطنع يتهادى أمامه دون أن يحرك فيه شيئاً. سكيرات، ومدمنات على

المخدرات، وبائعات هوى فقدن الإحساس بكل شيء بعدما فقدن معاني الشرف والفضيلة. أما هي، فكل شيء فيها جذاب، ساحر، في قمة البهاء والجمال.

بدأ (الحاج) عربدته المعتادة، وانتبه (سعيد) للفتاة التي تشاركه الرقص، دقق جيداً في ملامحها وشعرها وقوامها، لم يصدق عينيه في البدء، وظن أن مفعول الشراب كان أقوى هذه المرة، فحرك رأسه بقوة، وفرك عينيه، لكنها هي ولا شك. نعم، كانت (نجاة). لم يشعر وهو يصرخ باسمها، والتقت نظراتهما، كانت نظراتها شاردة بفعل الشراب، فاقترب منها، وكلما اقترب أكثر إلا وتجلى الخوف في عينيها. أمسكها من يدها، وتأمل الوجه الذي لطالما سحره وأثار جنونه وحرك مشاعره، وقد تحول إلى كتلة من الأصباغ والمساحيق، وفتش عن بريق الحياة والقوة في عيونها، فلم يجد سوى مُقلتين قد نال منهما التعب والألم والعار. شعر ببعض من الشفقة على حالها، لكن إحساسه الإنساني ذاك سرعان ما تلاشى. فجذبها نحوه، وبدأ يرقص معها. كانت تتمايل بلا رغبة، وبحركات آلية لا روح فيها، بينما تجلجل ضحكاته في أذنيها. دفعها برفق نحو غرفة مجاورة، فكرت أن تقاوم، وتذكرت بسرعة أن زمن المقاومة انتهى. أغلق الباب وراءهما، وأمرها أن تنزع ملابسها، واستلقيا جنباً إلى جنب على سرير. حدّق فيها ملياً، وشعرت بعينيه تنفذان إلى روحها. بينما تذكر هو الماضي البئيس، وكيف خانته مع قزم أحمق. وتساءلت هي في ذهول: لماذا يعاملني (سعيد) بهذه القسوة؟

تذكر أمه، وغمزات النساء وهمساتهم. وتذكرت أمها، التي ظلت المؤنس الوحيد لأمه حتى آخر أيامها. أمها التي ماتت، لأنها لم تتحمل اختفاء ابنتها الوحيدة. أجهشت بالبكاء بعدما اجتاحتها ذكرى أمها من جديد. تضايق من بكائها، فأشاح بوجهه بعيداً، وبصوت متقطع يسكنه الحزن خاطبته:

- لقد ماتت أمي، دون أن أتمكن من رؤيتها أو حضور مراسيم الدفن.

وانخرطت في نوبة بكاء جديدة وأشد وطئاً.

سكت، وانتابته حالة شرود مفاجئ، وشعر بثقل غريب يجثم على صدره. لبس ملابسه، وغادر الغرفة، استقبلته (الحاجة) وهي في قمة سكرها، شعر بالغثيان وهو يرى تجاعيد وجهها وقد غطتها المساحيق. سمع أحدهم يناديه لكنه لم يكترث، أكمل طريقه بسرعة، وأنفاسه تتصاعد، كأنما يبحث عن نسمة هواء تعيد الحياة لصدره.

وصل إلى سيارته أخيراً، لكن الصوت المتقطع والجريح ما زال يتردد في أذنيه: ماتت... ماتت

تذكر (لالة راضية) وهي تواسي أمه في الغرفة الكئيبة، تذكر سهرها وعنايتها بها كلما اشتد الألم، وتذكر دموعها الصادقة حين تلقيها خبر موت أمه. تذكر إحساسه الطفولي الجميل عندما كان يقبل يدها، وتذكر أيضاً اللوحة التي تزين بيتها، حيث متسول بائس يمد يديه للمارة. شعر بأنه أشقى من ذلك المتسول، وبرغبة كبيرة في البكاء، وتذكر من جديد أنه ومنذ زمن طويل لم يذرف الدمع. وصل إلى بيته، صعد الدرجات بصعوبة،

واستلقى على سريره. حاول النوم، فداهمته مشاهد وصور كثيرة: (نجاة)، و(فاطمة)، و(خالد)، و(عبد القادر)، و(لالة راضية)، والقزم الأحمق. هذا الأخير بدا له كعملاق يحاول أن يقتص منه. صرخ في رعب، وتكوم على نفسه، وضحكات مجنونة تتردد في أذنيه، وبكاء وآهات أيضاً. أغلق عينيه، فعادت كوابيسه لتؤرقه، وصرخ من جديد وبصوت أكثر حدة وفي منتهى الألم، ولم ينم تلك الليلة.

****

- لم يلقِ التحية على أحد، ولا حتى لسكرتيرته التي تعودت على طباع سيدها الغريبة، ودخل المكتب وهو يصرخ:

- (بوشعيب)... أريد (بوشعيب) فوراً.

أسرعت الفتاة لتنفذ الأمر، واستلقى هو على كرسيه وهو ينظر إلى السقف في جمود. دخل شيطانه الأصلع، ذو الكرش المنتفخة، والعيون التي هجرها النوم منذ زمن. رمقه (سعيد) بنظرات تقدح بالشر، وصرخ بحدة:

- (عبد القادر). ما رأيك فيه؟

مر الاسم في عقل (بوشعيب) ومعه صور لأشخاص عديدين، واحتار في معرفة الشخص الذي يقصده سيده، وفي لحظة ابتسم وهو يجيب:

- آه، (عبد القادر)، صاحب مطعم ال...

قاطعه (سعيد) بحدة أكبر:

- أحدثك عن (عبد القادر) الذي يعمل هنا أيها الأحمق.

"منذ مدة طويلة، لم تسمع أحداً يكيل لك الشتائم. ولكن هذا الفتى المجنون يهينك، ويحتقرك، دون أن تجد القدرة على الأرض.". جرحته نبرة سيده وعبارته، وبدا كطفل صغير يحاول أن يبعد الدموع عن عينيه وهو يجيب بانكسار:

- نعم، أعرفه. إنه الملتحي ذو الوجه المكتنز. ما به يا سيدي؟

اقترب (سعيد) من محدثه، وقد لمعت عيناه ببريق مخيف، وضغط على أسنانه من الغيظ والغضب:

- إنه يتدخل في أمور لا تعنيه، ويتحدث باسم العمال. بل ووصل به الحد أن يتهمني بعدم المسؤولية. هذا البائس، المتشرد. أنا من صنعت منه إنساناً، وعوض أن يقبل اليد التي منحته الكثير، يحاول بكل خسة أن يعضها.

اكتفى (بوشعيب) بالصمت وهو يسمع عبارات سيده المليئة حنقاً وحقداً، وتذكر أن المعني بالأمر هو صديق (سعيد) المقرب، وتساءل في نفسه: "وهل يملك سيدي أصدقاء فعلاً؟". وسرعان ما التقطت أذناه المزيد والأخطر:

- لن أقف مكتوف الأيدي، وهذا التافه يسبب لي المشاكل. لذا، فكرت في خطة، وستساعدني في تنفيذها.

- بالتأكيد يا سيدي. بالتأكيد. رد الآخر بدون تردد. فهو أيضاً لم يرتح يوماً لذلك الملتحي، دائم الابتسامة. شيء فيه كان يخيفه، ولن ينسى ذلك اليوم الذي مر قرب مكتبه، فسمعه يرتل آيات من القرآن. لحظتها، دعاه عقله للوقوف ليستمتع بتلك الكلمات الجميلة تخرج من شفتي (عبد القادر) هادئة، ونافذة إلى الأعماق. لكن الشيطان في أعماقه سرعان ما يدفعه للهروب.

- اسمع. سنعيد معه قصة القزم الأحمق، هل تتذكر؟

ضحك الآخر بوقاحة، وهو يتذكر الرجل المسكين وقد وضعت الأصفاد في عينيه. لكن الضحية هذه المرة رجل قانون، ولا يمكن أن تنطلي عليه هذه الحيلة القديمة. وكأن (سعيد) كان يقرأ أفكاره، فقد أضاف في حزم:

- لن يكون بمقدوره فعل شيء أمام قوة الإثبات. ستتصل بالشرطة وتخبرهم بوقوع سرقة في الشركة، وحالما يكون (عبد القادر) برفقتي، عليك أن تضع في سترته هذه الرزمة، هل فهمت؟

حرك رأسه بالإيجاب وهو يتسلم مظروفاً ممتلئاً من سيده. ولما هم بالانصراف، جذبه (سعيد) من يده بقوة، واقترب أكثر منه ليبادره بنبرة تهديد مخيفة:

- إياك أن تخطئ، إياك.

ارتسم الرعب على محيا الرجل، وحرك رأسه من جديد بعدما افتقد القدرة على الكلام، وعندما شعر بارتخاء قبضة (سعيد)، هرول نحو الخارج لأداء المهمة. بينما استلقى المدير على كرسيه الوثير، وقد تردد صدى ضحكات في دواخله، كجلاد ينتشي برؤية الدماء، ويستمتع بسماع آهات المعذبين.

****

- لم ينتظر لحظة وهو يسمع من الواقف أمامه أن المدير في انتظاره، فتوجه مسرعاً نحو مكتبه، وهو يتحاشى النظر في وجه (بوشعيب). فلم يكن يرتاح له، ولم يشك لحظة في أن هذا الأخير سبب كل مشاكل الشركة، ولولا أن دينه يمنعه من كيل الشتائم، لأذاق هذا الشيطان في صورة إنسان، الكثير منها.

وجد العمال في (عبد القادر) متنفسهم الوحيد للتعبير عن مشاكلهم وهمومهم والمصاعب الكثيرة التي تواجههم في العمل، ورق حاله لما سمع منهم، ولم يستوعب كيف يقابل مجهودهم وشقاؤهم بالكثير من الغبن، وعدم الاعتراف بالجميل من طرف الرؤساء. بل، وكيف يتم هضم حقوقهم المشروعة، فلا يتوصلون إلا بالنزر اليسير، والذي لا يكفيهم لتلبية احتياجاتهم، واحتياجات أسرهم. فشغله هذا الموضوع بشدة، وسبق أن حدث (سعيد) بالأمر، ولا شك أنه استدعاه من أجل التوصل إلى حل يرضي الجميع.

دخل إلى المكتب الفخم، وبنفس الابتسامة التي لا تفارق الوجه المكتنز، حيّا الرجل صديقه:

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام. كيف حالك يا (عبد القادر)؟ في الحقيقة، شعرت بضيق غريب، ولم أجد أفضل منك ليزيح هذه الغصة عن صدري.
- كان بإمكانك أن تجد من هو أفضل مني. فأنا أشك في قدرتي على علاجك.
- من تقصد؟
- الله عز وجل. كلما شعرت بالضيق والحزن، ما عليك سوى أن ترفع عينيك نحو السماء تدعو الله اللطف والرحمة والسكينة.
- قل لي يا (عبد القادر). هل كنت تتذكر الله في لحظات بؤسك وفقرك؟ هل خشعت في صلاتك والجوع ينهش أمعاءك؟ وهل نظرت للسماء يوماً تدعو الله الفرج، فأنزل عليك الذهب والفضة؟ لا يا (عبد القادر)، المال وحده يشعرك بالسعادة، وليست السماء.

استغرب (عبد القادر) من كلمات صديقه، واستغفر ربه في سره، لكنه حافظ على هدوئه وهو يرد:

- نعم يا (سعيد). المال، والثراء، والرقص والغناء، والمجون ومفاتن الحياة. تلك الحياة التي يأكل فيها الغني الفقير، وينهب فيها الكبار ما وصلت إليه أياديهم، وهي الحياة ذاتها، حيث الطمع والجشع والرذيلة وسوء الأخلاق. أية حياة هذه؟
- لو كنت تملك المال، لعشت الجنة الموعودة التي تسعى إليها بصلاتك وتقواك رغم أنك لم ترها يوماً. هو عمر واحد نعيشه، فلم لا نتمتع به؟

- إن كانت هذه هي الجنة، فأنا لا أريدها يا صديقي. أنت متعلم، ولا شك أن الضيق الذي تعاني منه قد أثر على تفكيرك. لكنك تعلم مثلي أن الحياة لا تدوم، وأن العمر قصير، وأن الآخرة خير وأبقى. استغفر ربك يا (سعيد)، وتعوذ به من همزات الشياطين.

" إنه يكرهه. يكره كلامه، لأنه يقول الحقيقة."

" منذ متى لم تشعر بطعم الراحة يا (سعيد)؟ أين تلك اللذة التي كنت تجدها في النوم قديماً، رغم الفقر والبؤس؟ كان يكفي أن تضع رأسك على الوسادة لتغرق في بحر الأحلام. واليوم، تؤرقك الأفكار، وأطياف ضحاياك. ولماذا يذكره بالموت؟ صورة أمه طريحة الفراش، ومشهد الدفن في قبر مخيف. (لالة راضية)، المرأة التي علمته الحنان قبل أن يرميها في بحر النسيان. لا يريد سماع المزيد، ولن يستطيع تحمل كلمات جديدة منه. لكنه مضطر لذلك، حتى يترك المجال لـ(بوشعيب) بأن ينفذ المطلوب."

شعر (عبد القادر)، وهو يعاين صمت (سعيد) وشروده، بأن كلماته قد تركت صدى طيباً في نفس صديقه. وقرر أن يدخل في صلب الموضوع، ويستغل فرصة صحوة الضمير تلك ليحقق آمال العمال المغلوبين على أمرهم. لكن الدخول المفاجئ لـ(بوشعيب)، والحالة التي كان عليها، جعلته يؤجل ذلك. فقد دخل الرجل وهو يلهث بقوة، وقد تصببّ عرقٌ غزيرٌ من جبينه، وبحركة مدروسة، انهار أمام مكتب المدير وهو يقول بصوت مرتجف:

- تعرضنا للسرقة يا سيدي. فقد وصل أحد العملاء قبل قليل وتسلمنا منه مبلغ **200000**درهم، كدفعة أولى لطلبية كبيرة. وقد وضعت المال بنفسي في الخزنة، لكنّني لم أجده الآن.

وأدى (سعيد) دوره بإتقان هو الآخر، فانقض على مستخدمه وأمسك بتلابيبه وهو يصرخ في وجهه، ويتهمه بالتهاون. بينما تحدث (عبد القادر) بهدوء لا يتفق والمشهد أمامه:

- لا داعي للصراخ. فلو تعلق الأمر بسرقة، فلن يكون السارق إلا واحداً من الشركة، وسيسهل العثور عليه. هل أبلغتم الشرطة؟

تبادل الاثنان نظرات الدهشة لتصرف الرجل. ورد (بوشعيب):

- نعم. وقد وصلوا للتو.

واكتملت مشاهد التمثيلية بدخول رجال الأمن الذين توزعوا على مختلف مرافق الشركة، ولم يسلم أي أحد من التفتيش، وصولاً إلى المدير نفسه، و(بوشعيب)، و(خالد) الذي انتابته حالة فزع، فهو المسؤول الأول عن الحسابات. وانتشر رجال الأمن في مكتب (عبد القادر) الذي احتفظ بهدوئه، وتمنى في قرارة نفسه أن يتم التوصل إلى اللص، حتى يقتنع (سعيد) بأن يغير الكثير من الأمور في شركته. رفع أحد الرجال سترة (عبد القادر) المعلقة، ووضع يده في جيبها الداخلي، ليخرج ظرفاً منتفخاً، فتحه بسرعة ليجد رزمة من المال، **200000**درهم كاملة.

ظن (خالد) أن ما يجري أمامه لا يمت للحقيقة بصلة، وأنه يعيش كابوساً مرعباً. ورمق الواقفين بنظرة غاضبة وهم بأن يصرخ في الجميع: لا. ليس (عبد القادر). لكن الكلمات توقفت على لسانه. والتفت جهة صديقه المتهم، والذي كان في حالة من الانهيار. وحده (سعيد) من تحرك، فتقدم بخطوات بطيئة نحو قائد الشرطة، وتبادل معه كلمات غير مسموعة، قبل أن يقول بصوت واضح:

- عليه فقط أن يوقع على هذا الالتزام.

وقع (عبد القادر) دون أن يحتج، أو يقرأ محتويات الوثيقة، وحمل سترته، ثم غادر بخطوات ميتة، بعد أن رمق (سعيد) بنظرة عميقة. شعر بها الآخر تنفذ إلى أعماقه، وتجرح قلبه وتدميه. بينما ضرب (بوشعيب) كفاً بكف وهو يقول بأسف:

- لا حول ولا قوة إلا بالله. حتى (الفْقِّيه) (بمعنى إمام المسجد) يسرق.

كاد (خالد) ينقض عليه، لكن رجليه مثلهما مثل لسانه، كُبِّلا بقيود، فلم يستطع التحرك من مكانه. واكتفى بمشاهدة صديقه المقرب وهو يغادر مكسور الجناح.

انفض الجمع فجأة، والتحق الجميع بأعمالهم. ودعا (سعيد) صديقه (خالد) لمرافقته إلى المكتب، فجر رجليه ورافقه، وألف سؤال وسؤال يتردد في عقله.

- "هل أبكي؟ حتى الدموع تعاندني، وأشعر أنها حبست في مقلتي، وخلفت غصة لعينة تخنق أنفاسي.". تنهد بقوة، واستغفر ربه ثلاث مرات. وحيد، حائر، وقد سكن الحزن عينيه الواسعتين، واختفت حمرة الدماء التي تميز وجهه ليحل محلها شحوب واضح.

كيف وقع ما وقع؟ إنه يعرف نفسه، ويدرك جيداً براءته. لكن لماذا فعل (سعيد) ما فعل؟ لماذا ورطه في تهمة لا يد له فيها؟ ولم جعله في ذلك الموقف المهين؟ لم يكن (سعيد) الواقف مع رجال الأمن هو (سعيد) الذي يعرفه، والذي ارتبط معه في صداقة كبيرة. ولماذا طلب منه أن يوقع على وثيقة؟ وكيف نفذ الأمر بسذاجة هو القانوني والحاصل على إجازة في القانون؟ و(خالد)، لماذا ظل متسمراً في مكانه؟ لماذا لم يحتج ويصرخ ويدافع عنه؟ أيمكن أن يكون متورطاً هو أيضاً؟

زادت الشكوك من ألمه. فاستعاذ بالله من الشيطان الرجيم، واسترجع بعضاً من صفاء عقله، فالتمس العذر لـ(خالد) الذي كان تحت وقع الصدمة ولا شك. والذي قد يكون هو الضحية القادمة. وتذكر (فاطمة)؟ كيف سيخبرها بما حصل؟ هي لن تشك في نزاهته وإخلاصه وأخلاقه. لكن كيف ستتقبل اتهام أخيها بالسرقة؟

عادت الهواجس لتسيطر عليه، وشعر بعيون أبيه المريض ترمقه بنظرات غاضبة وكأنه يعاتبه على قراره بالتخلي عن عمله الشريف، والقبول بالارتماء في مستنقع آسن. ورأى أمه وقد وضعت يدها على رأسها حزناً وكمداً، وتلقي بلعناتها على (الدار البيضاء) وأهلها الذين لا يعرفون الرحمة. ويرى دموع أخيه الصغير، الذي كان يحلم بدراجة صغيرة، يبكي حزناً على فقدان الهدية الموعودة، وعلى مصير الأخ المحبوب.

وعادت صورة (فاطمة) لتطغى عليه. في أحلك لحظات حياته، كان يجد العزاء في الله تعالى أولاً، وفي أخته ثانياً. يكفي أن تكون قربه ليستعيد قوته وروحه. وذلك وحده يريحه. وابتسم، رغم الغصة التي أبت أن تفارق صدره، ورغم الوساوس التي اجتاحته، ورغم هول ما حدث. ثم أوقف سيارة أجرة، واستلقى في مقعدها الخلفي، وردد في نفسه بخشوع:

" قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا".

****

- بالله عليك يا (سعيد). ماذا يجري؟ نطقها بصوت اختلط فيه الحزن بالدهشة والغضب.

- كما رأيت يا (خالد). (عبد القادر) الورع التقي الذي وضعت فيه ثقتي، وسلمته منصباً لم يكن ليحلم به، يخون اليد التي ساعدته ويسرق. كان بالإمكان أن يطلب و...

قاطعه (خالد) غاضباً:

- لا... لا يا (سعيد). إنك تعرفه مثلي، حينما كنا نتمرغ في الرذيلة، كان هو بعيداً عنا ومعتكفاً في عالمه الرّوحي يناجي ربه. أتذكُر نصائحه لنا، وكلماته التي تنبض بالإيمان وتريح الأنفس. لم أتجرأ يوماً على التدخين أمامه، ولم تتجرأ أنت يوماً أن تطلق العنان للسانك بالسب والشتم أمامه. كنا نحترمه، لأنه يشكل الشيء الناقص فينا، والشيء النادر في هذا الزمان. (عبد القادر) يسرق، يا للتفاهة. صدقني، لا يمكن له أن يتورط في عمل حقير، ليس لأنه لا يستطيع، فهو بشر. ولكن لأنه لن ينسى ربه، ولم ينسه للحظة واحدة. إن خوفه من خالقه يجعله يكف يده ولسانه وجسده عن المعاصي التي يمكننا أن نرتكبها. نعم، قد أفعلها أنا يا (سعيد)، وربما تفعلها أنت،

وقد يكون ذلك الأصلع ذو النظرات الشيطانية. لكن (عبد القادر)، لا... لا.

بح صوته من كثرة الصراخ، وسيطرت الدهشة على (سعيد) وهو يسمع كلام (خالد)، ويعاين انفعاله وغضبه. فقد ظن أنه وبمجرد ما سيكتشف رجال الأمن السارق، فإن الجميع سيحتقر (عبد القادر) ويهينه. لكن نظرات (خالد) واستنكاره لما وقع، بل ونظرات المستخدمين كلهم، جعلته يكتشف أنه لم يختر الطريقة المناسبة، ولا الضحية الأنسب. لكنه لا يهتم، لقد حقق مبتغاه، وجعله يوقع على تعهد بأنه مدين للشركة بمبلغ **200000**درهم، وملزم بأداء المبلغ كلما طولب بذلك، وإلا فمصيره السجن. بهذه الورقة سيمرغ كبرياءه في التراب، ولتُعِنهُ صلواته ودعواته على الخروج من هذه الورطة.

وانتبه لـ(خالد) الذي انشغل بتدخين سيجارة وهو في أقصى درجات التوتر. فنظر إليه ملياً، ولمعت عيناه بذلك البريق المخيف وهو يبادره:

- هدئ من روعك يا (خالد). وعلى العموم، فقد سامحته، وغضضت الطرف عن فعلته. وتركته يرحل في سلام.

ود (خالد) لو يجيب، لكنَّ شيئاً ما ألجم لسانه، فصب جام غضبه على السيجارة. كان يدخن بشراهة، ويقطع الغرفة ذهاباً وإياباً، وقد تملكته

الحيرة، وشغلته الأفكار والهواجس. فاقترب منه (سعيد)، وأمسكه من كتفيه قائلاً:

- لقد علمتني منذ زمن كيف أجد بعض السعادة كلما اشتدت وطأة الهموم والأحزان. وحان دوري اليوم لأرد الجميل إليك. ستتبعني، وثق أن سجائرك الرخيصة، وتلك البيوت البائسة التي تزكم أنوفنا فيها روائح البصل والثوم، وتلك الزجاجات الرخيصة التي كنت تتفاخر بها أمامي. قد تحولت اليوم إلى ما هو أفخم وأرقى. هيا يا صديقي، سآخذك إلى جنة الأحياء.

وضحك بصوتٍ عالٍ، حاول (خالد) أن يشاركه الضحك، لكنه لم يستطع، واكتفى بأن اقتفى أثره، وهما يغادران نحو الجنة التي وصفها (سعيد)، بينما استعرت نار حارقة في قلبه وعقله.

****

- طرق الباب، فاستقبلته بابتسامة عريضة، واستوقفته أمام الباب تمنعه من الدخول. حاول أن يشاركها مرحها الزائد، لكنه لم يستطع، فاكتفى بنظرة تساؤل من عيون متعبة. ويبدو أن المفاجأة التي كانت تخفيها أخته، كانت كبيرة، لدرجة أن أخته لم تنتبه لشحوبه ولا لنظرة الحزن في عينيه. فاقتربت منه، وهمست في أذنه ببضع كلمات، ولم ينتظر ليسمع المزيد، فاندفع إلى داخل الشقة، ليرتمي في حضن والدته. ولم يدر كم بقي على ذلك الحال، بقدر ما ترك روحه وجسده يغرفان من الدفء والأمان. وجرى (أحمد) يعانقه في حب واضح. بينما جلس الأب هادئاً كعادته. فتقدم الابن الأكبر نحو أبيه، وقبل يده البارزة العروق، وانتبه إلى أن أباه قد استعاد الكثير من عافيته. ثم ارتمى على أقرب أريكة ينشد بعضاً من الراحة بعد أن زادت المفاجأة السارة من وقع انفعالاته المتضاربة. أما (فاطمة)، فلم تترك لها الفرحة فرصة للجلوس ولا للانتباه لحالة أخيها، بينما انشغلت الأم بالتجول في أنحاء الشقة الواسعة ولسانها ما فتئ يردد: "ما شاء الله، تبارك الرحمان". في حين، وقف (أحمد) في الشرفة الواسعة، يتأمل المدينة الضخمة التي سلبت منه أعز ما يملك، أخاه الطيب، وأخته الملاك. وحده الأب من أحس بمعاناة ابنه، تمعن في ملامحه، وسرعان ما اكتشف أن ابنه

(عبد القادر) الذي تربى على يديه، وتعلم منه، ونشأ تحت بصره ورعايته. ليس هو الجالس أمامه اليوم. وبصوت هادئ وعميق، بادر الأب ابنه:

- ما بك يا (عبد القادر)؟

لم يستطع الابن أن يكتم تأثره، ولا مشاعره المتضاربة، فرد بنبرة حزينة:

- بعض المشاكل في العمل لا غير يا أبي.

- ومنذ متى كان العمل يؤرقك لهذا الحد؟ هل ما زلت تصلي يا (عبد القادر)؟

" لا... لا يمكن أن يشك أبوه فيه، وفي إيمانه. هل اعتقد أنني انغمست في الحياة ومفاتنها، وأن المال غير من قناعاتي. لا يمكن أن يحصل ذلك."

قبل (عبد القادر) يد أبيه من جديد، وقال:

- تعلمت منك الإيمان منذ الصغر، وعشت حياتي وبذرته تنمو وتكبر في قلبي. وذلك الإيمان هو ما يجعلني أستشعر القوة في لحظات الضعف، والصفاء في ساعات الكدر. لكن...

حاول أن يستمر في الحديث، لكنّ نداءً داخلياً منعه، وحذره مما يمكن أن يحصل للأب وهو يسمع الحقيقة المرة. فرنا إلى أبيه بنظرة رجاء، كأنما يدعوه ألا يطلب منه الحديث أكثر، لكن نظرة الأب الحادة، كانت تشي بأنه يعرف أنّ هناك جللاً ما. وأنه ينتظر تتمة الحديث. فأكمل، تحدث عن عمله الجديد، وعن صديقه القديم الذي فتحت له السماء أبواب الرزق، فاغتنى ومنح لأصدقائه فرصة العمر. وتحدث عن المال الذي أصبح

يتقاضاه، وعن الشقة التي لم يحلم بها يوماً، بل وانتقل بالحديث لـ(خالد)، ورغبته في الزواج من (فاطمة). ثم ختم حديثه، وبأعين دامعة، عما حدث، وعن تلفيق تهمة السرقة إليه. وصمت.

كان الهدوء سمة الأب الذي ظل ينصت لابنه في اهتمام، ولم تصدر عنه أية حركة وهو يتابع الحديث، لكن ما إن أخبره بالواقعة الأخيرة، حتى انتفض في قوة، وصاح بغضب:

- من يجرؤ على اتهامك بالسرقة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله. يسرقون ويتهمون الصالحين بما اقترفت أيديهم. ما هذا الشر يا بني؟ وأية لعنة ألقت بك نحوهم؟ لم يعد لك ما تفعله هنا، ستعود إلى مدينتك، حيث الكثيرون يكنون لك كل الحب والاحترام. أنت هنا، لست سوى سارق، فاسد. كأني بمدينة عشّش فيها الفساد فوزعته على سكانها وأحيائها وأتقيائها. أنت سارق؟ يا للسخافة. لو كنت لا أعرفك، ولمَ لمْ أرَ دموع الخشوع والرهبة في عينيك كلما قرأت القرآن، وذكرت الله. لولا هذا، لكنت صدقت الأمر، لحظتها لم أكن لأرضى بابن سارق، فاسد. لكنني أعرفك.

ونهض الأب مستنداً على عكازه وهو يقول بصوت متعب بفعل الانفعال:

- هيا يا (عبد القادر). لنرحل من هنا.

لم يتكلم الابن، ظل صامتاً يستمع لأبيه، وأطياف الماضي تمر أمام عينيه. "هل أحب هذه المدينة حقاً؟ هل ألف العيش فيها؟"، وتذكر سنوات الدراسة ومتاعبها، وعهد الصداقة التي عاش به ومعه لسنوات طوال. وطالعته صورة

(خالد) وهو جامد في مكانه يتفرج على معاناته، و(سعيد) يأمره بالتوقيع على ورقة تعدم كبرياءه وكرامته. فتأكد من أنه لم يجد يوماً صديقاً. لقد اتخذ أبوه القرار الصحيح، لم يعد لديه ما يفعله هنا، سوف يعود لأهله ومدينته، ليعيش وسط الناس الذين يحبونه، والذين لن يجرؤوا يوماً على اتهامه بالسرقة.

أثار صراخ الأب انتباه الآخرين، فالتحقوا بهما. ورأت (فاطمة) أباها متكئاً على عكازه وعلامات الانفعال بادية على وجهه، واكتشفت أخيراً أنّ أخاها (عبد القادر) مختلف، وشعرت بدمعة تترقرق في عينيها، وهي تلمح حزن الدنيا في عيون أخيها الأكبر. أما (أحمد)، فمنذ قدومه وهو يبحث عن الدراجة التي وعده أخوه بها، وشعر في لحظة بأنّ أخاه خذله، أو لربما نسي في غمرة انشغالاته، فعزم أن يذكره، لكنه عدل عن ذلك، وهو يرى المشهد الكئيب أمامه.

صمت الجميع، وظلت الكثير من الأسئلة تدور في العقول، وأسرع (عبد القادر) ليجهز حقيبته، ودعا (فاطمة) لجمع حاجياتها هي أيضاً. فتجرأت وسألته:

- لماذا يا (عبد القادر)؟ هل سنسافر؟ هل استفدت من عطلة مفاجئة؟

- لم أعد أعمل يا (فاطمة). سنعود إلى (وجدة). هناك سأبدأ حياة جديدة بإذن الله.

- أتعني أننا لن نعود إلى هذا المكان ثانية؟

- نعم يا (فاطمة). للتو دفنت كل ذكرياتي السابقة، وعليك أنت أيضاً أن تنسي كل ما يتعلق بهذا المكان.

"تحاول ماذا؟ بعدما اعتادت على المكان، ووجدت قلباً يحبها بصدق، سيكون عليها أن تتركه، وتسافر بعيداً. إنها خيانة، وليس من طبعها أن تخون أحداً. فهم الأخ ما يدور في رأس أخته، فنظر إليها وأمسك كتفيها برفق، وبنبرة يملؤها الحنان خاطب الأخ أخته:

- اسمعي يا (فاطمة). عشت وهماً كبيراً لسنوات كثيرة. ظننت أن البشر كلهم مثلي، تنبض قلوبهم بالخير والحب، وأن الحياة رغم صعابها لا يمكن أن تكشر عن أنيابها يوماً لتلتهمنا. لكنّني اكتشفت اليوم، أن الشر يحيط بنا من كل جانب، وأن أقرب المقربين هم من يذيقوننا الألم والمعاناة. عليك أن تنسي كل شيء، وكل شخص عرفته منذ وطِئت قدماك هذه الأرض. تذكري فقط أنك أختي، وأنك ستعودين لحضن أسرتك، حيث الحب والأمان.

لم تنبس بكلمة، ولم يضف هو شيئاً، وانشغل بحزم حقيبته. شعرت برغبة في البكاء، فقاومتها بما تبقى بداخلها من قوة، وانهمكت في جمع حاجياتها، وصورتان ماثلتان أمام عينيها. صورة (خالد) وصورة مدينتها (وجدة). اتخذت القرار، وأغلقت حقيبتها، وتساءلت في لحظة: أأضحك أم أبكي؟

- توالت المشاهد أمام عينيه للمرة العاشرة ربما. وظل يردد العبارة نفسها: لا... مستحيل أن يفعلها (عبد القادر).

كان يشعر بداخله أن في الأمر مكيدة، ويشعر في نفس الآن بالكثير من الندم لأن تصرفه لم يكن في مستوى الصداقة الكبيرة التي تجمعه به، ولا في مستوى الحدث وجلله. كانت أفكاره متضاربة، فاستمر يقطع مكتبه ذهاباً وإياباً في خطوات مضطربة، وفي توتر ملحوظ. وجالت بخاطره فكرة مفاجئة، أعادت بعض الهدوء لنفسه، وبعض الراحة أيضاً. وقرر أن ينفذها في الحال.

استقل سيارته، وانطلق مسرعاً نحو شقة (عبد القادر)، ليجد نفسه بعد دقائق واقفاً أمام باب الشقة. انتابته لحظة تردد، سرعان ما تغلب عليها وهو يطرق الباب طرقات هادئة. لم يتلقَّ أية إجابة، فطرق بصفة أشد، دون أن يرد عليه أحد. فتح باب شقة مجاورة، وأطل رجل بدا عليه الانزعاج من طرقات (خالد) القوية. وسأله الرجل:

- عمن تبحث يا سيد؟

- صديقي يقطن هنا، وأريد الاطمئنان عليه.

- أظن أنهم رحلوا. فقد التقيت بالسيد (عبد القادر)، وعرفت منه أنه سيغادر إلى وجدة. سنشتاق كثيراً لذلك الرجل الطيب، من الصعب الحصول على جار مثله.

- كيف؟ لا يمكن... ومتى؟ تساءل (خالد) بكل دهشة وحيرة وغضب.

- اعذرني يا سيد. فلست أملك تفاصيل كثيرة. تحدث الرجل بأدب، وأغلق باب شقته بهدوء. بينما تسمر (خالد) في مكانه من وقع المفاجأة، واستدار في بطء لينزل الدرجات. طالعته صورة (فاطمة)، فخفق قلبه بعنف. "رحلت؟ أبعدما وجدت قلباً يأخذني لمرفأ الأمان؟ وبعدما أتذوق حلاوة الحب في نظراتها ورقتها وسحرها؟ وبعدما عشت أحلاماً كثيرة كلها وردية؟ ماذا أفعل الآن؟ وكيف سأخبر أمي التي تترقب رؤيتها، وتتلهف للقاء الملاك الذي وصفته لها؟

توقف أمام سيارته، ورفع عينيه يتطلع للشرفة الواسعة المزينة بورود جميلة، رحلت الفاتنة وتركت مزهريات الورد شاهدة على رقتها وفتنتها، وتركت قلباً جريحاً ينزف في ألم وقوة.

وبدأت الشكوك تتسرب إلى نفسه، لماذا رحلوا؟ ولماذا في هذا التوقيت بالضبط؟ لم يترك المجال لعقله ليفكر بعمق وبمنطق، وتغلبت عليه فورة الغضب التي انتابته، واعتبر أن قرارهم بالرحيل دون إخباره هو خيانة له، وطعنة في الظهر. فتح باب سيارته، وهوى على مقعدها الأمامي، وقد انتابته رغبة ملحة في البكاء، لكن الدمع لم يطاوعه.

" أصبحت مجرد ألعوبة تتقادفها الأيادي إذاً." صرخ في قرارة نفسه بكل غيظ وغضب. وسرعان ما صرخ بأعلى صوته: لا... لا. لست أنا من يتلاعب به الآخرون. وانطلق بسيارته نحو المكان الذي مر بخاطره، واستمر يحدث نفسه بصوت مرتفع:

- لتذهب (فاطمة) ومعها (عبد القادر) إلى الجحيم. عليَّ أن أفرح وأبتهج لأن (خالد) الذي أعرفه سيعود من جديد.

توقفت السيارة أمام عمارة كبيرة وفخمة، صعد الدرجات بسرعة، وهو يتذكر آخر مرة رافق فيها (سعيد) إلى هذا المكان. آنذاك رفض الدخول إلى الشقة، لأنه عزم على الوفاء لمن شغلت فؤاده، وعزم أكثر على توديع حياته الماضية بكل سوئها وخطاياها. لكنها ربما الحياة التي يستحقها، مادام الوفاء قد انقرض في هذا الزمان.

طرق الباب، فتحت (الحاجة). ابتسم في وجهها، وردت بابتسامة ودودة، وبنظرة تساؤل عمن يكون. لم يتأخر في إخبارها أنه صديق مقرب للسي(سعيد). ففتحت المرأة الباب، واتسعت ابتسامتها وهي ترد بمرح:

- مرحباً بأصدقاء (سعيد). تفضل يا...

- (خالد). رد بهدوء وهو يدلف إلى داخل الشقة الفخمة.

نفذت إلى خياشيمه رائحة قوية، كانت مزيجاً من روائح العطور والبخور وأشياء أخرى لم يستطع تمييزها. كان المكان فارغاً، فلم يحن بعد وقت وصول الزوار والرواد. ناولته (الحاجة) شراباً وهي تسأله عن (سعيد). زاد

الشراب من النار المستعرة بداخله وهو يخبرها بأن (سعيد) مشغول، ونادراً ما يلتقيه. انشغلت المرأة بالتحدث في هاتفها، والرد على مكالمات لا تنتهي. أثارته ضحكاتها التي تجلجل في أرجاء المكان. وشرب كأساً ثانية. بعد لحظات، عجت الشقة بالضيوف، تقدم (الحاج)، واستقبلته صاحبة البيت بالكثير من الترحاب، وعانقته وهي تسأله عن صحته. لم يفهم (خالد) لم تذكر أباه، كلاهما يملك نفس اللحية، وكلاهما سكير، فاسد، وماجن. وفي لحظة تساءل: وماذا عني، ألست مثلهم أنا أيضاً؟

جلست قربه امرأة، كانت تدخن بشراهة، رنا إليها بنظراته، وردت هي بنظرات كلها إثارة وإغراء. أخذته الذكريات من جديد، هناك حيث بيوت قصديرية، وشقق عفنة، ورائحة تزكم الأنوف. يدها مغطاة بالحلي. تذكر أيام البؤس والشقاء. حلي هذه المرأة وحدها كانت كفيلة بأن تجعل حياته أرقى وأجمل. استمر توافد الزوار والزائرات، وشعر بعدم ارتياح وهو يرى مظاهر البذخ والثراء الفاحش التي لم يتعود عليها، والتي لا يستسيغها. فاستمر في الشرب. تمنى أن يستلقي بعدما شعر بإنهاك شديد، فطلب من (الحاجة) أن تمنحه غرفة ليستريح. غمزت المرّأة بعينها وقالت:

- أنت مبكر للغاية يا سيد (خالد).

لم يفهم قصدها، فوقف بصعوبة، وبخطوات مترنحة توجه إلى غرفة جانبية. فتح الباب، ليجد أمامه فتاة واقفة كأنها تستقبله، مسح عينيه ليزيل بعضاً

من آثار الشراب. الشعر الأسود الطويل، والعيون بلون الكستناء، والشفتان الرقيقتان. حاول أن يتذكر أين شاهد هذا الوجه من قبل، لكنه لم يفلح.
جذبته من ذراعه، وأغلقت الباب وراءهما. نزعت عنه السترة، وأجلسته على حافة السرير. نظر إليها بعينين شبه مغمضتين وقال بصوت خافت:
- أنا متعب. لفرصة أخرى.
بدا الأسف في عينيها وقالت:
- أرجوك، لا تتركني. فلن أتحمل عجوزاً آخر هذه الليلة أيضاً.
كان لسانه ثقيلاً وهو يردد:
- ما اسمك؟
ضحكت الفتاة، كانت ضحكة بلا روح، وأردفت بمرارة:
- لم يسألني أحد من قبل عن اسمي. بماذا سينفعهم أصلاً؟ فقد أخذوا جسدي وروحي ولن يهمهم اسمي.
ارتمت على السرير قربه، وتطلعت إلى السقف، وبصوت سكنه الأسى قالت:
- لن أسامحك. فقد ذكرتني بما حاولت نسيانه. منذ مدة لم أسمع أحداً يناديني باسمي، منذ زمن بعيد.
وبكت، انفجرت عبرات ساخنة كأنما كانت مكبلة منذ وقت بعيد، وتعالت شهقاتها وهي تحاول مسح دموعها دون أن تفلح. كان يكره دموع النساء، صورة أمه وهي تبكي، وأبوه السكير ينهال عليها بالضرب، زرعت

في روحه عقدة من الدموع، وخاصة دموع النساء. فلم يعد يتحمل رؤية دموع امرأة لأنها تذكره بمعاناة أمه. نهض وهو يصرخ:

- كفى... كفى. أرجوك، كفى...

شعر بدوار من فرط الشراب والانفعال، فتمسك بحافة السرير، تراءت له صورة (فاطمة)، فأشاح بوجهه بعيداً، لكن طيفها لم يرحل، كأنها تطارده في كل مكان. فانقض على الفتاة قربه والتي تفاجأت من حركته. أخفى رأسه في حضنها، وبدأ يبكي كطفل صغير. اندهشت للمنظر أمامها، وتذكرت أنها هي أيضاً لم تبكِ منذ مدة طويلة، وتساءلت في حزن:

- أهو يوم الدموع؟

ضمته إلى صدرها، وانكمش جسده وهو ينتحب في قسوة. اقتربت أكثر من أذنه، وهمست برقة:

- (نجاة)... اسمي (نجاة).

"نعم. هي (نجاة)، لطالما حدثه (سعيد) عنها، ابنة الجارة التي شغف بها حباً. والتي سبق له أن رآها كلما زار صديقه في الحي القديم. لكن، ماذا تفعل هنا؟"

لم يعد يستطيع التفكير ولا الكلام، تعب كبير شل حركته، فاستلقى على السرير ونام.

- "الحياة؟ البشر؟ القدر؟ كلما تمعنت في حياتي إلا وتساءلت: وماذا بعد؟ تضمني الأفراح فأشعر بأنني أسعد رجل في العالم، ويزيدني يقيني بأن الله عز وجل يرعاني سعادة على سعادة. وفي لحظة حزن، أو شدة، يظهر ضعفي، وتتجلى قلة حيلتي، فأنهار، ويتمكن مني الضيق واليأس. لكنّني لن أستسلم."

أطلق تنهيدة عميقة، ثم استغفر ربه، ورنا للجالسة قربه بنظرات حنونة. كانت نائمة، أو بالأحرى متظاهرة بالنوم. أغمضت عينيها وتركت عقلها يسبح في بحر من الذكريات، ولما شعرت بأن نوبة البكاء ستعاودها من جديد، غطت وجهها بوشاح، حتى لا يرى (عبد القادر) دموعها. أمامهما جلس الأب والأم صامتين، كلٌ يبحر في وادٍ، وكلٌ تتضاربه أفكاره وهمومه. انشغل الأب بسبحته، وشفتاه لا تكفان عن الاستغفار والحمد والحوقلة. وخفق قلب الأم بقوة وهي تفكر في مصير ابنها، وتدعو الله أن يبعد عنه لعنة تلك المدينة وشرور أهلها. وحده (أحمد) من انشغل برؤية المناظر الطبيعية تتهادى أمام عينيه من وراء نافذة الحافلة، لم يكن عقله الصغير ليستوعب الأمور ويحللها وتضيق بها نفسه كما الكبار، بل وعلى عكسهم، كان يشعر بفرحة غامرة، فقد التأم شمل الأسرة من جديد. تذكر

الدراجة الموعودة، وكادت الذكرى تنغص عليه فرحته، لكنه تساءل في حكمة: "وما الأفضل؟ دراجة، أم إخوتي؟". ولم يحتج للتفكير كثيراً ليعرف الجواب، ويعود للحظة استمتاعه. وسرعان ما التفت جهة أخيه وابتسم في وجهه، ابتسامة ود وحب غير محدودين. رد (عبد القادر) الابتسامة، ورنا للطريق بنظرات متعبة، شعر برغبة في النوم بعد ساعات من الإجهاد الجسدي والعقلي، لم ينتظر أكثر، فسلم أمره لله، وأغمض عينيه ونام.

****

- فتح عينيه ببطء، ونظر حوله، ثم تساءل: -أين أنا؟

جلس على حافة السرير، وجال ببصره في المكان، وأخذ يستعيد الأحداث السابقة، وصرخ فجأة: -نجاة.

فتح الباب، وظهرت (نجاة) بلباس النوم. وابتسمت وهي تتقدم نحوه قائلة:

- لقد نمت نوماً عميقاً، ولكن الفاتورة ستكون باهظة بلا شك. فهذه أول مرة يقضي فيها زبون الليلة والصباح هنا. (الحاجة) متضايقة من الأمر، لكنني أخبرتها أنك ستدفع أكثر، فهدأت.

أمسك بيدها بقوة وقال:

- ماذا تفعلين هنا يا (نجاة)؟

أدهشتها حركته وأفزعها سؤاله، وارتسم الكثير من الخوف والحيرة والذهول على محياها. لكنه أضاف:

- أنت لا تعرفينني. لكنني أعرف جيداً من تكونين، وأين تسكنين. ولا أفهم حقاً ماذا تفعلين في هذا المكان القذر. أم أن (سعيد) لم يخبرني أن جارته القديمة بائعة هوى.

"(سعيد)؟ الجارة؟ لماذا يذكرني بماض أحاول نسيانه؟ ومن هو؟ من يكون؟"

استمر في حديثه العاصف:

- لطالما حدثني (سعيد) عنك، وعن جمالك وسحرك، ونظراتك إليه. لقد أحبك، وجعلني أتعرف عليك من بعيد. لكنّني متأكد أنه لا يعرف حقيقتك. هل تختبئين عندما يزور المكان؟

لم تستطع تحمل المزيد، فقد أعادها (خالد) إلى شخصيتها الأولى والأصيلة، إلى (نجاة) ابنة الحي القديم، (نجاة) الفاتنة والجميلة والطيبة والطاهرة. وتذكرت أمها، التي ربتها على الفضيلة، وملأت الفراغ الكبير الذي خلفه الموت المبكر لأبيها. كانت في قرارة نفسها تنتقم، دون أن تعرف أنها كانت تنتقم من نفسها فقط. فقد دنس (سعيد) شرفها، وجعلها تكره جسدها، الذي سلمته للجميع. وأدمنت الشراب لعلّه ينسيها آلامها. لكنها اليوم تتألم أكثر. وتبكي أكثر.

صمت (خالد) وهو يتأمل دموعها، وردد في ألم: "كم أكره دموع النساء."

وتكلمت هي، بصوت مختنق:

- لست أدري إن كنت أتيت لتزيد من عذابي، أم أنك أتيت في الوقت المناسب لتخلصني من معاناتي ومأساتي. أتعرف لم أنا هنا؟ لأن (سعيد) أراد ذلك. كنت زوجة مخلصة، ومنحني الله زوجاً طيباً وحنوناً، وأماً رائعة. فعشت سعيدة لوقت طويل. لكن، في لحظة تغيرت أشياء كثيرة، ووجدت نفسي وحيدة في مواجهة مشاكل ومصاعب لا قِبل لي ولا لأمي بها، فلجأت لـ(سعيد)، ابن الجارة، والذي لن ينسى أفضالنا عليه وعلى أمه الراحلة.

طرقت بابه وكلي ثقة في أنه لن يردني خائبة الأمل، وفعلاً، فقد توسط لي في عمل عند (الحاجة). أصبحت مكلفة بالتنظيف وخدمة سيدة البيت، وتهيئة الشقة لحفلات المجون التي لم أكن أحضرها أبداً، فقد كنت أغادر قبل وصول الضيوف. وجاء (سعيد).

صمتت، كأن الذكرى الأليمة كبلت لسانها، لكن ملامح (خالد) التي سكنتها الدهشة والفضول دفعتها للاستمرار، فأردفت وهي تضغط على أسنانها من فرط الغيظ:

- جاء مبكراً على غير عادته، وجدني وحيدة في البيت، وانقض عليَّ بوحشية. دنس جسدي، فشعرت بأنني لم أعد (نجاة) التي أعرفها، وكرهت نفسي وجسدي، الذي سلمته طواعية لأي عجوز سكير يطلبه. لم أكن سيئة يوماً، لكن القدر جمعني برجل هو الشيطان عينه. (سعيد) صديقك المقرب الذي تتحدث عنه، هو أسوأ رجل قابلته في حياتي. لفق لزوجي تهمة وأدخله السجن، ورمى بي في مستنقع الخطيئة، ولست أدري كم من ضحية أخرى تدفع ثمن خطاياه وشروره. وربما قد تكون أنت الضحية القادمة، فذلك الشخص يرتوي من دماء الآخرين ومآسيهم ليحيا. وقد أخبرني بذلك يوماً وهو في أشد حالات سكره.

انهارت على الأرض، كأنما أفرغت ببوحها كل طاقتها وقوتها. وتسمر (خالد) في مكانه، وتساءل: "هل يمكن أن يكون (سعيد) بهذه الدناءة؟". وتذكر (فاطمة) و(عبد القادر) من جديد، وانتبه إلى الشر الذي كان في عيون

(سعيد) وهو يطلب من (عبد القادر) أن يوقع على ورقة تدينه. لماذا يتذكر التفاصيل الآن؟ ولماذا لم يسأل (سعيد) عن سر ثروته، وهو الذي كان أشدهم فقراً؟

صحا من شروده على آهات ألم تطلقها (نجاة)، التي اكتشفت للتو أنها قتلت روحها. فحمل سترته، وفتح الباب ليهرب من المشهد المأساوي أمامه، لكن عيون الفتاة المنهارة نادته في صمت: "لا تتركني هنا.". لم يفكر أكثر، جذبها من يدها برفق، وطلب منها أن ترتدي ثيابها. نفذت الأمر بسرعة، وهي تعيش صحوة الضمير. استقبلتهما (الحاجة) قرب باب الخروج، بأعين منتفخة، ووجه غابت عنه المساحيق فبدا على حقيقته، بشعاً، مقززاً، ومثيراً للاشمئزاز. أخرج أوراقاً مالية من جيبه ولوح بها أمام المرأة، ففسحت لهما المجال للخروج، وانهمكت بِعَدِّ المال وقد لمعت عيونها ببريق الجشع واللهفة، ولم تنسَ أن تودعهما بسخرية:

- لا أعرف لم يعشق الرجال أجساد الخادمات؟

ركب سيارته، وجلست (نجاة) قربه، كانت في عالم غير العالم. تساءل هو في حيرة:

- ماذا تخبئ يا (سعيد)؟ بل من أنت؟

حَارَ في وجهته، ولم يجد أفضل من مكان واحد، يمكنه فيه أن يعيد ترتيب الأمور، ويمكن للفتاة أن تجد فيه الراحة والأمان. هناك في حضن أمه.

37

- ها قد عدت يا (عبد القادر)، شعور طفولي قديم يغمرك الآن، شعور بالألفة والارتياح. تبادل التحايا مع المعارف والجيران، واستشعر صدق المشاعر في تحياتهم وسلامهم، وميز مدى الاحترام الذي يكنه الجميع لهم ولأبيه خاصة. اقترب من البيت، كان معتاداً على رؤية حوض كبير غرست فيه شجيرة صغيرة، مازال الحوض في مكانه، لكن الشجيرة ذبلت، لأنها افتقدت اليد التي ترعاها وتمنحها نسمة الحياة. نام (أحمد) بعدما أنهكته الرحلة الطويلة، وتوضأ الأب ليبدأ حصته اليومية من العبادة، وجالت (فاطمة) في أرجاء البيت، تتفقد ورودها وأحواضها، وتتأسف على ما أصابها وعلى ذبولها. التحق بغرفته الصغيرة، واستسلم لأفكار طغت على عقله، وسؤال ما فتئ يؤرقه: "ماذا سأفعل الآن؟". كان عليه أن يبحث عن عمل، فليس من المعقول أن يعول على المدخول البسيط لأبيه، ومطالب الأسرة واحتياجاتها ستزداد. تجاهل أفكاره، وحمل مصحفاً صغيراً، وبدأ يرتل آيات من الذكر الحكيم، ليعيد الصفاء لذهنه ولروحه. وطرق الباب، طرقات خفيفة ومترددة، ثم فتح بهدوء، لتظهر (فاطمة) بلباس النوم. فسألها بود:

- ظننتك نائمة بعد رحلتنا الطويلة والمتعبة؟

- كلما حاولت النوم إلا واجتاحتني الأفكار المزعجة، فأظل أتقلب في فراشي. لذا قررت المجيء والتحدث معك قليلاً.

- تفضلي يا (فاطمة)، فلا أظن أنني سأنام أنا أيضاً.

- ما زلت لا أصدق أننا في (وجدة).

- هذه هي الحياة. أعرف أنك اعتدت على ذلك المكان، لكن ليس ذلك ما يؤرقك، إنه هو أليس كذلك؟

أحنت رأسها في خجل، وتوردت وجنتاها بدماء الانفعال، قبل أن تقول بصوت خافت:

- إنني امرأة يا أخي. لي أحلام وأمنيات، وأملك قلباً يحب ويعشق. لكنّني خذلت الشخص الذي أحبني، وغادرت دون إخباره، أو توضيح الأمور إليه. كيف سيكون رد فعله؟ وكيف سيعتبرني لحظتها؟ أحياناً، أشعر بندم شديد على قراري بمرافقتك لأنني وضعت نفسي في موقف لا أحسد عليه. وأحياناً، أرى في الأمر نعمة، فقد تعلمت أشياء كثيرة، وتمكنت من الشعور بأنوثتي من جديد، بعدما عشت لسنوات طويلة أجيد دور الأخ الأكبر في أسرتي الصغيرة هذه.

- أقدر شعورك يا أختاه. وأعترف أنني السبب في كل ما وقع. لكن، لعل في الأمر خير. فموقف (خالد) خلال محنتي، غيّر من قناعاتي نحوه. كان يتفرج على ذبحي دون أية ردة فعل. لحظتها تأكدت أنه لم يتغير، بل ازداد سوءاً. ما زلت صغيرة، وجميلة، وأخلاقك تؤهلك لتعيشي حياة سعيدة مع رجل

يقدر قيمتك. قد يبدو الأمر صعباً في البداية، لكن ومع مرور الوقت ستنسين كل الأحزان، صدقيني، فالأيام تداوي جراح البشر.

- أحياناً، أعاتب نفسي بشدة، لأنها تعذبني لسببٍ تافه. لكنّني أعود لألتمس لها العذر، فليس بيدها حيلة. نعم، سيلزمني وقت للنسيان، وسيكون وقتاً طويلاً بلا شك، لأتمكن من العثور على شخص آخر يستحق اهتمامي. أما الآن، فلن أهتم سوى بهذه الأسرة، وبهذا البيت. وليعني الله على ذلك.

- لنأمل من الله الخير. وأنت مؤمنة، فاستعيدي قوتك وإيمانك لتت...

قاطعته وهي تضع سبابتها على شفتيه مطالبة إياه بالصمت، وقالت بنبرة مرحة:

- لقد حان وقت النوم أيها السمين، كفاك ثرثرة.

استلقى على سريره، وأسدلت الغطاء برفق على الجسد المتعب، وتمنت له ليلة سعيدة، ونوماً هانئاً، قبل أن تغادر الغرفة. فأدرك (عبد القادر) أن أخته قد بدأت أولى خطوات النسيان، وغطى وجهه، ثم ردد بعض الأذكار، واستسلم للنوم، وقد عزم على النهوض باكراً للبحث عن عمل، أي عمل.

****

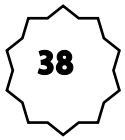

- صعدا الدرجات ببطء، كانت تتبعه في صمت، وما عساها تقول؟ توقف أمام شقة، فتح الباب، ودخل أولاً، ثم دعاها للدخول. كانت الشقة واسعة، وفي منتهى النظافة والجمال. ومضت بها وساوسها نحو الأسوأ:" أيعيد (خالد) سيرة (سعيد)؟" تساءلت في لحظة حيرة وقلق.

صحت من أفكارها على صوت ضعيف يأتي من إحدى الغرف، صوت امرأة تنادي (خالد). أسرع هذا الأخير نحو مصدر الصوت، وسرعان ما خرج ممسكاً بذراع امرأة يبدو عليها المرض والتعب. تقدمت المرأة نحوها، وأخذت تدقق النظر فيها، وتفحصها من الرأس لأخمص القدمين. أحنقها الموقف، وضايقها التصرف، لكن، ما عساها تفعل؟

اعتقدت أن المرأة تسخر منها ومن هيئتها، ومن جلبابها الفضفاض الذي لا تتذكر أين وجدته، ومتى لبسته. ومن شعرها الذي ثارت خصلاته في غير نظام، وحتى من عينيها المنتفختين بفعل البكاء والسهر. لاحظت أن المرأة تبتسم، فابتسمت مرغمة، وسمعتها تتحدث مع (خالد) بلكنة أمازيغية، ولم تفهم شيئاً مما يقال. لكن (خالد) أخرجها من دائرة الشك والحيرة، وهو يخاطب المرأة بود واضح، بعد أن أجلسها برفق على أريكة جلدية:

- إنها (نجاة). ليست المرأة التي حدثك عنها، وإنما هي فتاة أخرى، قست عليها الحياة كثيراً، وسقتها الكثير من البؤس والشقاء والمعاناة. أعرف أنك ستعتنين بها يا أمي، أليس كذلك؟

نادت الأم (نجاة) بإشارة من يدها لتجلس بجوارها، وأحاطتها بذراعها، وقالت بصوتٍ ضعيفٍ النبرة:

- أنت في بيتك يابْنتي. لقد تعبت من وحدتي، ومللت الجلوس لساعات طوال في هذا البيت الواسع بلا مؤنس. ستعيشين معنا، إلى أن يقدر الله أمراً آخر.

استشعرت (نجاة) الصدق والحنان والطيبة في كلام المرأة، وتذكرت أمها والحضن الحنون، فلم تشعر إلا وهي ترتمي في حضنها، وتبكي. تضايق (خالد) من جديد وهو يرى الدموع، فقرر المغادرة وهو يقول:

- حدثيها عن كل شيء يا (نجاة) فستجدين آذاناً صاغية، لعلّ بوحك يريحك. أما أنا فسأغادر لأمرٍ هامٍ. هناك أمور تحتاج للتفسير، ولن أنتظر أكثر.

غادر الشقة، واستقل سيارته متوجهاً نحو الشركة، وتمنى أن يجد (سعيد)، فوحده القادر على الشرح والتفسير. استقبلته السكرتيرة، وأخبرته أنه في المكتب، فتنفس الصعداء، ودخل.

كان (سعيد) يتحدث في الهاتف مع شخص آخر، بصوت سلطوي ومتعجرف، وعاد السؤال ليكبر في ذهن (خالد): من أنت بحق السماء؟

انتبه (سعيد) للواقف أمام الباب، فابتسم وهو يدعوه للجلوس بحركة من يده. وبعدما أنهى المكالمة، ضحك ملء شدقيه وهو يخاطب (خالد):

- هل تعرف من المتصل؟ إنه مدير شركة يطلب مني مساعدته، لأن شركته على حافة الإفلاس. هؤلاء المتعجرفون لا يتذكرونك إلا في وقت الشدة، لذلك يستحقون ما يحصل لهم.

وضحك من جديد، وبصورة أشد. " نعم يا (خالد)، ليس هذا (سعيد) الذي تعرفه، تغير الرجل، وأصبح مخيفاً، فكأنه نار تحرق كل من يقترب منها. لكن، لماذا؟"

تحدث (خالد) بهدوء:

- (سعيد)، أريد أن أستفسرك عن بعض الأمور.

- تفضل، قل ما بدا لك، فقد أحسنت اختيار التوقيت.

- أريد أن أعرف كيف أصبحت غنياً، وكيف تحولت في لحظة من شاب بسيط يبحث عن عمل، إلى صاحب شركات. أريد أن أفهم كيف رميت (نجاة) في بحر الرذيلة، ولم أدخلت زوجها إلى السجن. وأريدك أن تشرح لي سبب تلفيقك التهمة لـ (عبد القادر) وكلانا يعرف أنه بريء. لماذا تغيرت يا (سعيد)؟ منذ متى أصبحت دموع الضحايا تفرحك وتشعرك بالسعادة. ممن تنتقم؟ ولماذا؟

تكلم بصوتٍ عالٍ وبانفعالٍ واضحٍ. وتجمدت الضحكة في أعماق (سعيد). لقد فضحه، وذكره بضحاياه، وبجرائمه. ومن يكون هذا حتى يحاسبه؟

صديقه. "تباً للصداقة، فلم يعد لدي أصدقاء، صديقي هو مالي وشركاتي، وليذهب الآخرون إلى الجحيم."

اعتدل (سعيد) في جلسته، ورمق (خالد) بحدة، وقال:

- لقد انتشلتك من البؤس والفقر وأدخلتك جنتي التي لم تكن تحلم بها، وجعلت منك رجلاً ينال الاحترام والتقدير. لولاي، لكنت مجرد عامل حقير، يتقبل الإهانة، ويطفئ جوعه بكسرات الخبز والماء. منحتك المال، وبيت الأحلام، وسيارة فاخرة، وتأتي الآن لتحاسبني، وتلومني، وتتهمني. أهذا هو رد الجميل يا (خالد)؟

- و(عبد القادر)؟ هو أيضاً صنعت منه رجلاً، وقد رأيت مصيره. إنك تصنع الرجال لتحطمهم في نهاية المطاف، ولتطفئ تلك النار المستعرة بداخلك. نعم، منحتني الكثير، ولا أنكر ذلك. لكنني متأكد أنني وعما قريب سأصبح ضحيتك المقبلة، أليس كذلك؟

- ماذا تريد يا (خالد)؟ أتريد أن تعود للبؤس والحرمان. عد إذاً، ولا تريني وجهك أبداً.

- سيكون من الأفضل لي أن أعود إلى حياتي السابقة رغم مرارتها، على أن أعيش الوهم وأصحو يوماً لأكتشف أنني أحيا في الجحيم. لقد زرعت الشر في قلبك. أين (سعيد) الذي كنت أعرفه منذ زمن؟

نهض من مقعده وهو يصيح:

- لا تحدثني عن الماضي فقد دفنته مع أمي. ولا تحدثني عن الشرف والفضيلة والأخلاق، لأنك آخر من يمكنه الحديث عن ذلك. إننا نحيا في غابة لا تعترف بالفقراء والضعفاء، ولكي تكسب هيبتك، وتفرض على الآخرين احترامك، فعليك أن تملك المال. المال وحده يفتح لك الأبواب المغلقة. أتريد أن تعرف عني أكثر، اسمع إذاً، أنا أزوّر، وأدفع الرشاوى للمسؤولين ليغضوا الطرف عن أعمالي المشبوهة، وأحتكر السوق، وأظلم العمال في حقوقهم المشروعة، وأسرق. نعم، أنا الغني الفاحش الثراء، لا أجد غضاضة في سرقة أي شيء. يحلو لي أن أمتلك حاجيات الغير. لستُ سوى موجة في بحر يا (خالد)، فهنا ينمو الفساد ويتشعب، ولا يمكنني سوى الارتماء في حضنه لأعيش.

- كفى يا (سعيد). لو كنت أريد الحرام لسلكت طريقه منذ زمن. لكنّني تربيت على يد امرأة فاضلة، علمتني معنى الفضيلة والحلال. رغم انحرافاتي السابقة، إلا أنني لم أسرق أبداً، ولم أزوّر، ولم أظلم أحداً يوماً. لقد بدأت أشك فيك، لا يمكن لمن تربى في حضن الفضيلة أن يكون بهذا السوء، لا شك أنك عشت في الحرام منذ نشأتك، فنشأ معك، ونما وكبر بمالك. لقد تأكدت اليوم أنني لم أحسن اختيار الصديق، للأسف، بعد هذا العمر الطويل.

لم يرد (سعيد). توقفت الكلمات في حلقه، والعبارة ترن في أذنيه: "عشت في الحرام منذ نشأتك..."، نظرات النساء وهمساتهم وغمزاتهم، أحاديث

زملائه، والابتسامة الغريبة على شفاههم، وآخر شتيمة تلقاها: "يا ابن الزا...".

" ماذا يقصد (خالد)؟ لا...لا."

لم يتمالك نفسه وهو ينقض على صديق الأمس ويمسك بتلابيبه بقوة وهو يصرخ:

- اصمت. أنا أشرف منك أيها البئيس الأحمق. أنسيت أصلك، ومن أين أتيت، و...

استمر في كيل الشتائم، فما كان من (خالد) إلا أن دفعه بعيداً عنه وقال بحدة:

- حذارِ يا (سعيد). لا تتمادى في أخطائك وخطاياك، وتذكر أن الله يمهل ولا يهمل. لا أريد مالك، ولا العمل معك، ولست مستعداً للعيش في عالمك الفاسد، لن أعيش بالحرام أبداً.

وانصرف، كان لوقع خطواته صدى جميل في أذنيه، خطوات واثقة وقوية، وشعر بأنه أزاح عن كاهله عبئاً كبيراً، واندهش في قرارة نفسه من كلماته، منذ متى كان يتحدث عن الفضيلة والخير وعدالة السماء. ألم يكن طيلة حياته ثائراً، متمرداً على الواقع؟ ألم يكن سوى مدمن حشيش؟ ما الذي غير تفكيره وغير قناعاته؟

وتذكرها، فكأن نسمة هواء صفعت وجهه برفق، لتشعره بالنشوة. " نعم، هي غيرتني، وجعلتني أرى الحياة بمنظور آخر. ليذهب العمل والمال والسيارة

والبيت الفاخر للجحيم، ما دام كل ذلك بالحرام." ونظر للسماء نظرة طويلة، فكأنما يرى الشمس لأول مرة. رمى مفاتيح السيارة في وجه الحارس الذي لم يفهم شيئاً، وغادر المكان بنفس جديد، وآمال جديدة.

ضرب المكتب بكلتا يديه، ومضى يقطع الحجرة طولاً وعرضاً، وعرق غزير يتدفق منه. صراع مرير في أعماقه، وغضب جارف يعصف به." لا، لا يمكن. لقد خلقت لأسيطر على الناس حولي، فلم أشعر بأني ضعيف كلما واجهني أحدهم؟ نعم، أنا فاسد، لكنّني لا أعرف لم تنزع نفسي للشر؟"

جلس في كرسيه، وارتسمت نظرة أسى على عينيه وهو يردد ذات السؤال: "لم تنزع نفسي للشر؟ ...". وفجأة، تغيرت ملامحه، وعاد ذلك البريق المخيف ليسكن العيون العميقة. خرج من مكتبه بخطوات أقرب للعدو، وتقدم من الحارس وسأله عن (خالد)، فأخبره بأنه غادر سيراً على الأقدام. استقل سيارته، وانطلق مسرعاً متتبعاً خطوات صديقه السابق. تراءت أمامه صور كثيرة، عيون (خالد) الخضراء وهي ترميه بسهام تدميه، (عبد القادر) هادئاً كعادته وينظر إليه بشفقة، (نجاة)، (فاطمة)، المعلم (محمد)، أمه، خاله... ورآه، كان يريد عبور الشارع، فزاد من سرعة سيارته، التفت (خالد) ليتفاجأ بسيارة مسرعة تتجه نحوه مباشرة، حاول تفادي الاصطدام، لكن السيارة كانت أسرع. اصطدام قوي، وتعالت صرخات نساء يقفن في الجهة المقابلة. زاد من سرعته وهو يهرب من مكان الحادثة،

وانتابته نوبة ضحك جنوني، وهو يتجه نحو المكان المفضل إليه، حيث يبسط سيطرته وينسى جرائمه. هناك عند (الحاجة).

كان في قمة انفعاله، منخرطاً حتى النخاع في نوبة ضحك هستيرية، فلم يهتمِمْ لنظرات الدهشة من حارس العمارة، ولا لنظرات الاستنكار من بعض المارة. طرق الباب بعنف، واندفع إلى الداخل دون أن يحيّي أحداً. توجه مباشرة نحو (الحاجة)، وعانقها بقوة. فاجأت الحركة المرأة، فظنت أنها استعادت شبابها الغائب، وجمالها القديم، فضمته إلى صدرها بقوة، وزادت ضحكاته المجنونة. شارك (الحاج) رقصه دون أي شعور بالاشمئزاز، وبعد أن سرى مفعول الشراب في عروقه، بدأ يكيل الشتائم للجميع. شتم الفقراء والمحرومين، فصفق (الحاج) وبقية السكارى. شتم العاهرات والفاسدين والمدمنين، فانخرط الجميع في نوبة ضحك مصطنعة، وشتم الساسة والمسؤولين والمرتشين، فانكمش الرجل المهم في مقعده، وهو يداري وجهه بعدما فهم أنه المقصود. وشتم الكثيرين بأسمائهم وصفاتهم، وشتم نفسه في الأخير. خارت قواه، وشعر بدوار شديد، فسقط وسط الحشد، ولم يعد يسمع سوى صوت شخير قوي منبعث من خياشيمه.

****

- تأخر الوقت. ولا أثر لـ(خالد). تكلمت الأم بصوت ضعيف، لم يخلُ من خوف وترقب.

- لا داعي للقلق، ربما لم ينه عمله بعد.

- لا يا (نجاة). منذ مدة طويلة، لم يعد (خالد) يتأخر، وأصبحت مواعيده مضبوطة ومرتبطة بموعد دوائي. ولا يهنأ له بال حتى يتأكد من استغراقي في النوم. أحمد الله كثيراً لأنه وهبني ابناً باراً مثله.

شعرت (نجاة) باشتياق كبير لأمها، وتذكرت في أسى عدم حضورها لحظة موتها، ولا مراسيم دفنها. وبدت لها في أم (خالد) صورة طبق الأصل من الراحلة. نفس القلب الطيب الذي لا يعرف الحقد ولا البغضاء، ونفس الجسد المنهك الذي نخره المرض، فأفقده نشاطه وهمته. كلاهما عانى الكثير من أجل أبنائه.

اقتربت منها وجلست بجوارها على الأريكة، وأمسكت بيدها النحيلة، لتهمس في أذنها:

- لا تقلقي يا أمي، سيأتي قريباً.

التفتت نحوها المرأة، ومدت ذراعها لتحضنها وتقول في حنان ظاهر:

- لطالما تمنيت أن تكون لدي بنت، وها هي الحياة تمنحني واحدة. حمداً لله.

وفي خضم اللحظة المفعمة بالحب والمشاعر الجميلة، طرق الباب فجأة، طرقات قوية، جعلت المرأتين تنتفضان دهشة وتوجساً. أسرعت (نجاة) لتفتح الباب، وتسمرت الأم في مكانها، وشعور غريب يسيطر على كيانها. كان الطارق شاب، بدا عليه التوتر وهو يسأل (نجاة):

- هذه شقة السيد (خالد) أليس كذلك؟

ردت (نجاة) بإيماءة من رأسها بعدما جعلتها ملامح الشاب تتوجس هي أيضاً.

أردف الشاب بسرعة:

- أسكن بالعمارة المجاورة، وأعمل بالمستشفى المركزي. منذ ساعات، وصل رجل مصاب في حادثة سير، وحالته خطيرة. لما رأيته، تعرفت عليه، وقررت إخباركم.

انصرف الشاب بعدما ألقى قنبلته، وتسمرت (نجاة) أمام الباب، وارتعش جسدها بصورة مخيفة. (خالد)... حادثة سير... حالته خطيرة... توالت العبارات في عقلها كسيل جارف. وتساءلت في لحظة: " أهي لعنتي حلت بهذا البيت؟". سمعت الأم تناديها، فاتجهت نحوها بخطى متباطئة وثقيلة دون أن تغلق الباب. تضاربت الأفكار في ذهنها، "هل تخبرها؟ أم تخفي عنها الخبر المفجع؟". لمحت عيون المرأة وقد سكن فيهما الخوف والترقب، هو

قلب الأم، يستشعر الخطر ويحسه، ولن تستطيع مهما ملكت من مهارة في الكذب، أن تخفي عنها الحقيقة.

- ماذا حصل لـ(خالد)؟ تساءلت الأم بصوت مرتجف.

حاولت (نجاة) أن تجيبها، لكن دموعها منعتها من الكلام، فتأكدت المرأة من أنّ مكروهاً أصاب ابنها الوحيد. وتحاملت على نفسها في الوقوف، وبنبرة كلها رجاء، سألت (نجاة) من جديد:

- أرجوك. أخبريني، ما الذي حصل؟

تجرأت الفتاة، وأخبرتها الحقيقة. ولم تكمل كلامها، فتحت قدميها سقط الجسد المتعب، جسد أم أحست بأن فلذة كبدها قد ضاع منها. وصرخت (نجاة)، صرخات متتالية وعالية، فاندفع سكان العمارة نحو الشقة، ودخل رجلان ليمدا يد المساعدة، فاتصل أحدهما بالإسعاف. وبعد لحظات، حمل جسد الأم المغمى عليها، وركبت (نجاة) قربها، وانطلقت السيارة نحو المستشفى المركزي، حيث يرقد (خالد) أيضاً.

****

- فتح عينيه ببطء، وتأمل السقف كعادته كلما استيقظ من نومه، فلم يجد تلك القطع البلورية الصغيرة التي ألف كل صباح أن يستمتع ببريقها الأخاذ. وتساءل: أين أنا؟ تقدمت (الحاجة) نحوه وهي تحمل صينية الإفطار. كان وجهها طبيعياً ويبدو على حقيقته بعد أن أزالت المساحيق عنه، فاشمأز لمنظرها، وراوده شعور بالغثيان. اقتربت منه، وجلست على حافة الفراش، وابتسمت في وجهه، لكن الابتسامة لم تخفِ بشاعتها، فأشاح بوجهه، بينما تحدثت هي بدلال:

- صباح الخير يا عزيزي. تشرفت بقضاء الليلة معك أيها الشقي.

زاد شعوره بالغثيان وهو يتخيل نفسه في حضن العجوز، فهرب نحو الحمام، وترك جسده تحت المياه الباردة علها تنعشه وتنسيه الذكرى المقرفة. ثم ارتدى ملابسه بسرعة، وغادر دون أن يبادلها ولو كلمة واحدة. اندهشت من تصرفه، وسرعان ما تغلبت على دهشتها، وانهمكت في التهام محتويات الصينية، وقالت بحنق:

- هكذا هم السكارى.

خرج، فاستقبلته نسمات باردة، وشغل المكيف في سيارته لينعم بدفء مصطنع. حاول أن يتذكر أحداث الأمس فاختلطت المشاهد والصور

بذهنه، وعادت صورة (الحاجة) لتثير اشمئزازه. لم يعد يجد راحته وسط تلك القذارة، ولم تعد تلك الأجساد التي دنسها غيره تثيره. يريد الأفضل، والأجمل، والأرق. وترسخت صورة أمام عينيه، وتحرك ذلك الشعور الشيطاني في أعماقه وهو يردد في نفسه: "إنها جميلة، نقية. وأنا أحتاج لذلك الجمال والطهر، من يدري، لعلها تغيرني نحو الأحسن. لقد سئمت الجمال المصطنع، والقذارة التي تحاول العطور الغالية أن تخفيها، والأجساد المتهدلة التي تعجز الأثواب عن إخفاء بشاعتها. أحتاج لجسد طاهر لم يمسسه أحد، ولروح نقية لا تعرف الشر لعلها تداوي روحي المثقلة بالشرور.".

حمل هاتفه، فتش عن رقم معين، وردد بعجرفة:

- آلو.

رد محدثه بهدوء: السلام عليكم.

لم يكن ليرد التحية بأحسن منها، فقال بنفس العجرفة:

- (عبد القادر)، كيف حالك؟

صمت الطرف الآخر قليلاً قبل أن يجيب بنفس الهدوء: الحمد لله. ماذا تريد يا (سعيد)؟

- لا شيء، أردت الاطمئنان عليك فقط. أنسيت أننا أصدقاء؟

" أية لعبة جديدة تلعبها بكل خسة وحقارة يا (سعيد)؟ وأية أفكار شيطانية تجول بخاطرك؟". رد (عبد القادر):

- لقد قتلت صداقتنا بيديك منذ أن جعلتني سارقاً. للأسف، لم أتصور أنك ستكون بتلك الدناءة. على العموم، لم يعد بيننا شيء، أستودعك الله.

صرخ (سعيد):

- لا، ليس بعد. هل نسيت أنك وقعت على ورقة تجعلك مديناً للشركة بـ 200000درهم. لقد حان وقت السداد. سأنتظرك غداً في مكتبي، وإلا فأنت رجل قانون، وتعرف مصيرك جيداً.

- لا أفهم لماذا تعاملني بهذا الشكل؟ ما هذه الرغبة المجنونة بداخلك يا (سعيد)؟ هل تحمل كل هذا الشر بين ضلوعك لتوزعه على أقرب الناس إليك؟ أنت تعلم أنني لا أملك المال، وأنا مستعد للسجن، مادام الأمر يرضيك.

ضحك (سعيد) بسخرية وقال:

- كفى من ادعائك الشجاعة والرجولة. قد تستطيع تحمل السجن، لكنَّ أباك المريض وأمك، لن يتحملا أن يسجن ابنهما الورع والتقي بتهمة السرقة.

تغيرت نبرة (عبد القادر) وصرخ بغضب:

- ماذا تريد يا (سعيد)؟

- (فاطمة). نطقها بهدوء وبثقة، وبكل خسة أيضاً.

شعر (عبد القادر) وكأن عشرات المطارق انهالت ضرباً على رأسه وهو يسمع اسم أخته يتردد على لسان الشيطان. ولم يترك له الآخر مجالاً للرد وهو يضيف:

- سأنتظركما غداً في مكتبي، وإلا... ثم أنهى الاتصال.

انهار (عبد القادر)، وتساءل في لحظة ضعف: "هل ارتكبت خطيئة أعاقب عليها في دنياي؟". استرجع حياته السابقة، ولم يجد في مسار حياته ما يمكن أن يعاقب عليه، سوى قبوله العمل مع (سعيد). وعاد ليتساءل من جديد: "ماذا سأفعل؟". ما ذنب أخته الطيبة حتى يزج بها في خضم المشاكل، وما ذنبها لتوضع في موقف محرج كهذا. ووقفت أمامه. كان غارقاً في بحر همومه وانشغالاته، ليصحو فجأة على ضحكتها المرحة وهي تقول:

- تصور أن (أحمد) له صديقة. لقد اكتشفت بالمصادفة رسالة كتبها إليها، ويعدها فيها بالزواج.

اندهشت لأنّ أخاها لم يشاركها الضحك، ودققت في وجهه أكثر لتعرف أنّ شيئاً جديداً قد كدّر صفو حياته، فسألته في قلق:

- ما بك يا أخي؟

رفع نحوها عينين منكسرتين، هو الذي كانت عيناه تشعان دوماً ببريق الإيمان والرضا. ورد بنبرة حزينة:

- أحس بأني ضعيف يا (فاطمة).

- ومن منا لا يشعر بضعفه، فكلنا ضعفاء. لقد تغيرت يا (عبد القادر)، أين أخي الذي عرفته منذ وعيت على الدنيا؟ أخي المؤمن الذي لا تهزه مطبات الحياة ومصاعبها، ولا يترك الفرصة للهموم والأحزان بأن تتغلب عليه وتثبط عزيمته. وأين (عبد القادر) المرح دوماً، والمبتسم على الدوام؟ ماذا حصل لتتغير نحو الأسوأ؟

- لو كان الأمر يتعلق بي وحدي لما اهتممت، لكنك أنت وأسرتي سبب ضعفي. فالأمر يتعلق بك أنت أيضاً، وضميري ما فتئ يؤنبني على توريطك في هذا الأمر.

ارتسمت على محياها علامات الذهول والتساؤل، فقرر أن يخبرها بكل شيء، مكالمة (سعيد)، وتهديده له بالسجن، وضرورة مرافقتها له. استمعت باهتمام لحديث أخيها، وخفق قلبها بعنف لما سمعت حديثه عن السجن، وازداد توترها وهي تسمع قراره بمرافقتها. لكنها لم تفكر أكثر، كل ما يهمها الآن أنّ أخاها في ورطة، وأنه يحتاج إليها، فابتسمت في وجهه، ابتسامة واثقة، وقالت بحزم:

- سأرافقك يا أخي.

كان يعلم بأنه يقودها نحو مصير مجهول، وعزم في قرارة نفسه ألا يترك فرصة لذلك الشيطان لإيذائها، وتابعها ببصره وهي تتوجه نحو غرفتها لتعد حقيبتها، ونهض بدوره ليجهز حقيبته، فالله وحده يعلم كم سيبقى هناك.

41

- وقفت تستمع لكلام الطبيب، يكاد التوتر يسقطها أرضاً هي أيضاً، لكنها أصغت باهتمام، وهي تدعو الله في سرها بأن يبشرها الطبيب بأخبار مفرحة. تحدث في البدء عن الأم، فأخبرها أنها أصيبت بحالة إغماء، وأن مرضها المزمن تسبب في ذلك، زيادة على الانفعال. وطمأنها بأنها وفي غضون ساعات ستستعيد عافيتها، لكنها ستحتاج للكثير من الرعاية، وستحتاج أكثر للراحة الجسدية والنفسية. وقبل أن يغادر الطبيب، استوقفته لتسأله عن حالة أخيها كما ادعت، وأبدى الطبيب استغراباً حين علم بأن المريضة هي أم المصاب في حادثة السير المروعة، لكنه سرعان ما رد بمهنية:

- لقد أصيب بكسر مزدوج في ساقه اليمنى، وبكسور متفرقة في أنحاء من جسده. لقد نجا من الموت بقدرة قادر، فلتحمدي الله على نجاته.

انصرف الطبيب، وشعرت (نجاة) بأنها أزاحت عن كاهلها عبئاً ثقيلاً، وبأن وطأة الانفعال قد خفت قليلاً. وتذكرت شيئاً، فأسرعت لتتبع خطى الطبيب الشاب، واستوقفته من جديد، وسألته إن كان بإمكانها زيارة أخيها، فرد بالإيجاب، وطلب من ممرضة إيصالها إلى غرفته. بدا لها الطبيب رجلاً طيباً بحق، هي التي، ومنذ زمن طويل، رسمت صورة سيئة للأطباء، أولئك المتعجرفون ببذلاتهم البيضاء، والذين يعاملون المرضى بطريقة تفتقد

للإنسانية. لكن هذا الطبيب غيّر قناعاتها، فشكرته بحرارة، ورافقت الممرضة التي دعتها ألا تطيل المكوث بالداخل، فما زال المريض تحت تأثير المخدر.

اقتربت من الجسد الراقد في سكون، وقد غطته الضمادات. تأملت وجهه ملياً، وتألمت لما أصابه، وعاودها شعور ملح بالبكاء لكنها تمالكت نفسها. اقتربت منها الممرضة بهدوء، وهمست في أذنها بأن هناك بعض الحاجيات تخص المصاب قد وجدت في سترته، فسلمتها لها. حافظة نقود، وهاتف مكسور الشاشة، وبعض المفاتيح. فكرت أن تفتح الحافظة، لعلها تجد شخصاً من معارف (خالد) يمكنه تقديم المساعدة، وهي أشد ما تحتاج لمن يعينها، فهي وحيدة مع مريضين. وجدت مفكرة صغيرة، بها أسماء وعناوين وأرقام هواتف، صادفها أول اسم: (عبد القادر)، فقررت أن تتصل به، وتوجهت إلى مخدع هاتفي قريب من المستشفى، وركبت الرقم.

سمعت صوتاً هادئاً ينفذ إلى الأعماق من الجانب الآخر: -السلام عليكم.

- وعليكم السلام. اعذرني على الإزعاج. لكنني أحتاج إلى مساعدتك.

- أيمكنني أن أعرف من يتحدث معي؟

- أنت لا تعرفني. لكنك تعرف (خالد). لقد تعرض لحادثة سير خطيرة، وهو يرقد بالمستشفى المركزي الآن.

تغيرت نبرة صوت (عبد القادر) وهو يسألها بلهفة:

- ماذا؟ (خالد) مصاب؟ سألتحق بالمستشفى فور وصولي إلى الدار البيضاء.

انقطع الخط، وتنفست (نجاة) الصعداء فقد وجدت أخيراً من سيساعدها. وبعيداً عنها، كان (عبد القادر) جالساً في الحافلة ومعه (فاطمة) التي لم تتمالك نفسها بعدما سمعت أخاها يتحدث عن إصابة (خالد)، فصرخت بلوعة:

- ماذا حدث؟

- أصيب (خالد) في حادثة سير وهو بالمستشفى.

ترقرقت دمعة على الخد الأحمر، ورفعت يديها في خشوع ودعت له بالسلامة والنجاة، بينما ألقى (عبد القادر) برأسه على زجاج النافذة، ولسانه يلهج بدعوات صادقة.

****

- خذلت الطبيعة الكثيرين في هذه الصبحية الشتوية، فقد أشرقت الشمس، وتربعت في كبد السماء، فكأننا في عز الصيف. ذلك حال هذا البلد، مناخه لا يختلف عن سكانه، الكل لا يهدأ على حال. تتغير الطباع، ويسكن الطمع والجشع النفوس، فيقتل الأخ أخاه، ويأكل القوي الضعيف، وتتجلى الطبقية في أبشع صورها. وتزداد طوابير الشباب الباحث عن عمل، وكلما تملك اليأس القلوب، إلا وتطلعت الأرواح إلى الجنة الموعودة هناك وراء البحار، وغالباً ما تخذل أمواج البحر أمنياتهم وأحلامهم، فتفيض أرواحهم بين أحضانه. ويكثر الفقر والفقراء، فترى أطفالاً حفاة يفترشون الأرض الصلبة، ويواجهون الحياة بصعابها وأهوالها بقلب فتي، فرض عليه أن يعيش العذاب، عوض أن يستمتع بالألعاب. والكل يجري، ويلهث بحثاً عن لقمة العيش. وينسى الجميع في غمرة انشغالاته وجريه وسعيه المجنون أنّ الحياة لا تستحق كل هذا العناء، وأنّ لحظة صفاء مع الروح قد تميط اللثام عن الحقيقة الوحيدة، حقيقة إنّ الحياة فانية، وإن الآخرة خير وأبقى. قليلون فقط من يتذكرون آخرتهم، ويعيشون دنياهم بالقدر الذي قدر لهم أن يعيشوها، وروحهم يسكنها حب الله وطاعته والتوكل عليه.

واحد من هؤلاء، لفظته المحطة في هذا الصباح، حمل حقيبته، وبجانبه فتاة جميلة، رغم الحزن الساكن في عينيها. أوقف (عبد القادر) سيارة أجرة، ليقصدا المستشفى المركزي. بخطوات مسرعة ولجا المستشفى، وسألا عن غرفة (خالد). تقدم (عبد القادر) نحو الجسد المسجى، وشعر برغبة في البكاء، ولكنه تمالك نفسه، اقترب أكثر من وجه صديقه، وهمس في أذنه:

- (خالد)، هل تسمعني؟

فتح عينيه بجهد واضح، وانتظر قليلاً لتنزاح غشاوة عن عينيه، وبصوت واهن تحدث:

- (عبد القادر) ... (عبد القادر)

أمسك هذا الأخير يد صديقه وقال بحنان:

- حمداً لله على سلامتك. لقد قضينا الليل بطوله، أنا و(فاطمة) ندعو لك بالشفاء والعافية.

كان للاسم وقع كبير على (خالد) الذي ابتسم بشحوب وقال:

- (فاطمة) معك؟

تقدمت بخطوات بطيئة، ولم تستطع إخفاء مشاعرها وهي تخاطبه بكلمات مرتعشة:

- حمداً لله على سلامتك.

لم يستطع الرد، فسرعان ما استسلم لغفوة جديدة. وغادرا الحجرة في هدوء. ليتفاجأ بفتاة جميلة واقفة أمام باب الغرفة وتنظر إليهما بود. تساءل (عبد

القادر) عمن تكون، فلم يسبق له رؤيتها، وتساءلت (فاطمة) في حيرة وغيرة، " هل يعرف فتاة غيري؟". لكن الفتاة تكلمت لتزيح الكثير من الغموض وسوء الفهم، وأخبرتهم أنها من اتصلت. فخاطبها (عبد القادر):

- لقد قمت بعمل رائع، ولن ينسى (خالد) ما فعلت من أجله.

- لا أنتظر رد الجميل من (خالد)، فأفضاله كثيرة عليّ. إنما أبتغي الأجر من الله، لأزيح بعضاً من سيئاتي الكثيرة.

راقت كلماتها لـ(عبد القادر)، فتجرأ على أن يدقق النظر في الوجه الجميل، والعيون بلون الكستناء، وأحنى رأسه في حياء، بعدما لمح خصلة شعر حريري قد انفلتت من وشاح رأسها.

استأذنت منهما لقضاء بعض الأغراض، ولم تنسَ أن تخبرهما بما وقع للأم، فزادت دهشتهما، وقررا زيارتها هي أيضاً بعد عودتهما من المشوار المنتظر.

رافقت (فاطمة) أخاها، الذي كان بين الفينة والأخرى يسترق نظرات قلقة نحوها، فلا يجد أية علامات على الخوف والقلق والتوتر على محياها. وكانت الشكوك والهواجس تفعل فعلها في ثنايا مشاعره، وما فتئ طيلة الطريق يسأل نفسه: "ماذا يريد منا هذا الشيطان؟"

وصلا إلى المكان، وفوجئ (عبد القادر) بتواجد رجل محل السكرتيرة الحسناء، وتفاجأ أكثر بتلك اللوحات الجديدة التي علقت في المكان، وضمت آيات قرآنية. دلفا إلى الداخل، ليجدا (سعيد) بكامل أناقته، وقد رسم على شفتيه ابتسامة ود ولطف، وبادرهما بأدبٍ غير معتادٍ:

- السلام عليكم.

رد (عبد القادر) التحية، وجلسا أمام المكتب، وسادت فترة من الصمت، كأن كل واحد يحاول قراءة أفكار الآخر، وتحدث (عبد القادر):

- ماذا تريد يا (سعيد)؟

- ألم تلحَظ شيئاً مميزاً يا (عبد القادر)؟

جال ببصره في المكان، ولفتت انتباهه نفس اللوحات القرآنية وقد زينت جدران المكتب، وأردف (سعيد):

- لقد تغيرتُ كثيراً يا (عبد القادر). في لحظة تساءلت: وماذا بعد؟ سئمت من حياتي السابقة، ولم أعد أتحمل الإساءة للآخرين، وكرهت نفسي الأمارة بالسوء. فلجأت إلى الله، ودعوته أن يغفر لي ويسامحني.

"لا يا (فاطمة). لا يمكنك أن تصدقي كلام هذا الرجل. بل لا تستطيعين تصديقه، لأنّ شيئاً ما في داخلك يدعوك للنفور منه، والخوف منه أيضاً".

استمر (سعيد) في حديثه:

- سأنسى ما وقع بيننا، وسأمزق تلك الورقة اللعينة التي جعلتك مديناً لي، وسأعيد لك احترامك وهيبتك وشرفك أمام الجميع، فمهما حصل، سيظل عهد الصداقة أقوى وأمتن.

"خوفك يزداد يا (فاطمة)، وتوترك، وحيرتك أيضاً. وما سر ذلك البريق الذي يبدو في العينين العميقتين؟". اندهش (عبد القادر) لكلام (سعيد)،

وتساءل: هل هو صادق؟ ولم يخفِ رغبته الكبيرة في أن يستعيد شرفه الذي أهين أمام الجميع، لكن، ما هو المقابل؟ وما هو الثمن؟

وكأن (سعيد) قرأ ما يجول بخاطر صديقه المزعوم، فقد أردف، وعيونه ترمق (فاطمة) بنظرات غريبة:

- لقد تغيرتُ كما أخبرتك. لكنني أحتاج لمن يساعدني في هذا التغيير. وخير من يقوم بذلك امرأة. امرأة فاضلة، محترمة. تملأ فراغي الرّوحي، وتغمر قلبي بالكثير من الحنان والحب والأمان. باختصار أريد أختك يا (عبد القادر). أريد (فاطمة).

قفز (عبد القادر) من كرسيه بلا شعور، وبقيت أخته جالسة في مكانها. لقد كانت ظنونها في محلها، فهذا الشخص لا يمكن الوثوق به، ولا الارتياح له. "ألم تسمعي كلمته الأخيرة؟ -أريد (فاطمة)-، حاول قدر المستطاع أن يلعب دور الحمل الوديع، لكن لسانه خانه في اللحظة الأخيرة. لستُ بضاعة يا (سعيد) حتى تعبر عن رغبتك في الاستحواذ علي، ولستُ واحدة من اللواتي يبعن أجسادهن وشرفهن مقابل أموالك القذرة. وفوق هذا كله، أنا، لا أريدك." وصرخت بقوة:

- لا.

سادت لحظة رهيبة من الصمت. لم يستوعب (عبد القادر) الموقف بعد، فما يزال أسير الصدمة التي خلفها كلام (سعيد)، واشتعلت النار في قلب هذا الأخير وهو يسمع عبارة الرفض من الفتاة التي أرادها. وانفجرت (فاطمة):

- أنت غني، لكن هذا الغنى سبب تعاستك، ولا شك أنك تعاني في حياتك أكثر من أي فقير بائس. حاولتَ أن تمثل أمامنا دور التقي الورع، الذي يتأسف على ماضيه ويحاول أن يتغير للأفضل. لكن نبرة صوتك، ونظرات عينيك، وعباراتك التي لم تحسن انتقاءها، كل ذلك فضحك. من اعتاد على الشر، من الصعب أن يتخلص منه في لحظة. تريدني، وهل تظنني بضاعة تشتريها؟ أو واحدة من عشيقاتك، تمنحك المتعة مقابل المال؟ لستُ من ذلك النوع ولن أكون، ولستُ أنا من ستناسبك، وعلى كل حال، فأنا مخطوبة، وقريباً سأزف إلى زوجي، تعرفه جيداً، (خالد).

"عرق غزير يغسل جسدك يا (سعيد). وضيق غريب يكتم أنفاسك. أقدر عليك أن تتعذب بسبب امرأتين؟ (نجاة) في البدء، وهذه الفتاة الجالسة أمامك. لقد حطمتك، نزعت عنك قناع القوة والهيبة والعنفوان، وأهانت رجولتك. وتخبرك بكل وقاحة عن (خالد)."

تردد الاسم في عقله للحظات، قبل أن يضحك بسخرية ويقول:

- آه، المسكين (خالد)، لقد تحدث مثلك في وقت سابق، لكن القدر لم يسعفه ليكمل كلامه. لقد مات حبيبك، مات (خالد).

فاجأته ابتسامة لم يتوقعها من (عبد القادر) وبصوت استعاد هدوءه وعمقه أجابه:

- لا أعلم حقاً من أخبرك بخبر موته، لكنّني متأكد من أن (خالد) حي يرزق.

"(خالد) حي؟ ما معنى هذا؟ لماذا تنتقم مني الحياة؟ من يقف في طريقي ويمنع عني السعادة؟ ولماذا هذه الغصة اللعينة تشتد وطأتها وتخنقني؟". لم يعد يستطيع التحمل، فرماهما بنظرات شرزاء وصاح في وجهيهما:

- اغربا عن وجهي. اخرجي أيتها الحقيرة، وانتظر أنت مصيرك أيها المغفل، ستسجن، وسيمرغ وجهك في التراب.

احمر وجه (عبد القادر) من الغضب، ولم يتقبل أن تسب أخته وتهان أمامه، فكاد ينقض عليه، لكن (فاطمة) منعته، وأمسكته من ذراعه لتقوده نحو الخارج، ولم تنسَ أن تخاطب (سعيد) بحدة:

- إنك شرير يا (سعيد). قد سكنك الشيطان، وأودع فيك كل صفاته الدنيئة. هل ورث الشر عن أبويك؟ هل الدماء التي تجري في عروقك هي دماء الرذيلة والخطيئة والسوء؟ افعل ما بدا لك، فلا أحد يستحق الشفقة الآن سوى أنت.

وغادرا المكان، ليستقلا سيارة أجرة متوجهين إلى المستشفى المركزي من جديد، في حين تسمّر (سعيد) في مكانه، وكلمات الفتاة كخناجر مسمومة تنغرس بين ضلوعه. انتابته نوبة هيجان، فحطم اللوحات المعلقة، وصرخ بأعلى صوته:

- (بوشعيب)... (بوشعيب)

دخل السكرتير الجديد ليخبره بأن (بوشعيب) لم يظهر منذ مدة، وأنه منشغل بالبضاعة الموجودة في المستودع، ولم يكمل كلامه، بعد أن رماه

مديره بقنينة زجاجية كادت تهشم رأسه. كان في قمة هيجانه، وغضبه. لقد أيقظت تلك اللعينة الجرح القديم، وجعلته ينزف ويتألم ويبكي، انهار على مكتبه وانخرط في نوبة بكاء، كأن عيونه التي لم تذرف الدمع يوماً، تنفجر الآن لتفرغ كل الدموع التي انحبست بداخلها لسنوات. كان يحتاج لأحد في محنته، لكنه لا يملك أحداً. فكر في (بوشعيب) وتساءل عن سرّ انشغاله، وعادت قضية المستودع لتشغل تفكيره. فكر في (الحاجة)، وراوده الشعور المقيت بالغثيان، فبصق على الأرض، وحطمه السؤال: أين سأذهب؟ ولمن سألجأ؟ ومرت صور كثيرة أمام عينيه، الحيّ القديم، أطفال يستمتعون بمعارك وهمية، شبان يستندون الجدران، رواد المقهى المدمنون على الحشيش، صاحب المحل الذي يكرهه، (نجاة)، (لالة راضية)، النساء وغمزاتهن وهمساتهن، و... انتفض في قوة وهو يتذكر أحداً. ولم ينتظر أكثر ليتوجه نحو الحيّ، ويقف بسيارته أمام العمارة البئيسة. لم يبالِ به أحد، فلم يعد يعني لهم شيئاً، حتى الرجل صاحب الدكان، والذي حطم وجهه آخر مرة، لم يبدِ أية ردة فعل، فاكتفى بأن ابتسم في وجهه، ابتسامة شامتة.

صعد الدرجات القليلة، توقف لهنيهة أمام باب شقتهم القديمة، تذكر أمه، وشم رائحة الموت تنبعث من جدرانها الخارجية، فأشاح بوجهه، ليجد شقة (نجاة)، وتذكر أمها، ورائحة الموت من جديد. ثم التفت جهة الباب الثالث، حيث يعيش عجوز، لسنوات كان ذلك الرجل سراً من أسرار الحارة، لا

يغادر بيته إلا للتوجه إلى المسجد. قد نسيه في غمرة انشغالاته، لكنه اليوم يحتاج لأي شخص يمكنه الإجابة عن أسئلته.

طرق الباب، ففتح الرجل على الفور، كأنه كان ينتظر قدومه. وتحدث بهدوء:

- تفضل، كنت في انتظارك منذ زمن.

استغرب (سعيد) لكلمات الرجل، الذي لم يتركه ليستوعب الموقف أكثر، فأردف وهو يجلس على أريكة:

- (سعيد)، أليس كذلك؟

حرك الآخر رأسه بالإيجاب، فطلب منه الرجل أن يجلس قربه، ونفذ الأمر كأن قوة تدفعه لسماع كلامه.

- تشبهها كثيراً. نفس العيون، ونفس الملامح.

- من تقصد؟ تساءل (سعيد) وقد غمرته حالة شرود.

- أمك. المرحومة أمك يا بني.

- هل تعرفها؟

- التزمت الصمت طيلة حياتي، لكن صمتي كان مصدر تعاستي في فترة من عمري، وجعلني شخصاً ضعيفاً بلا شخصية ولا كيان. هل تريد سماع القصة من بدايتها؟ منذ سنوات كثيرة، جاءت فتاة شابة إلى هذه المدينة بعدما لفظتها قريتها التي سكنها الفقر والجوع والموت. هربت، لعلها تجد هنا ما ينسيها مرارة العيش هناك. كانت ساذجة، نفس السذاجة التي تميز القرويين، لكنها كانت جميلة، بل فاتنة. وقضت شهوراً تبحث عن عمل

ينتشلها من الضياع دون جدوى. والتقينا. كنتُ شاباً وسيماً وقوياً، ووراء مظهري الجميل كانت تختبئ حقيقة مروعة، وهي أنني قواد، أفتح الأبواب وأغلقها ورائي، لا يهمني من يدخل أو يخرج، بقدر ما يهمني المال. وفتحت لأمك باباً، ظنت أنني ملاك من السماء لأنني وفرت لها عملاً، واكتفيت أنا بأن أسمع صراخها وتوسلاتها وبكاءها، وأغلق الباب وراءها. وتغيرت الفتاة القروية بعد تلك الليلة، انغمست في حياتها الجديدة، وارتوت كثيراً من بحر الفساد والرذيلة، ومنحها جمالها وفتنتها السبق على الكثيرات، فدعتني لمرافقتها بعد أن اقتنت شقة صغيرة، وهناك أيضاً، كنت أفتح وأغلق، بينما ضحكات أمك تجلجل في المكان. وزرع أحدهم بذرة الخطيئة في أحشائها، فحملت، ورفضت أن تتخلص من الجنين، لتنجب ولداً، أنجبتك أنت يا (سعيد)؟

"هل تسمع؟ أم أن أذنيك صمتا؟ أعرفت الآن من تكون؟ أعلمت أصلك ونسبك؟ وسر الضحكات الكتومة والهمسات والغمزات؟ أعرفت سر الضحكات الشيطانية في أعماقك؟ لست سوى ابن سكير، مدمن، حقير من أولئك البؤساء الذين يتمرغون في الرذيلة ويعيشون بها؟".

واسترسل الرجل في كلامه:

تدفق المال بغزارة، فانتقلنا لشقة أفخم وأكبر. وتغير الزوار، رجال من علية القوم، وأنا ما زلت أفتح وأغلق، وألتزم الصمت. وجاء رجل لينظم إلينا في لعبتنا القذرة، بائس آخر من نفس قريتها، هرب هو أيضاً من الفقر

والجوع، وقادته المصادفة لمكانها، فآوته، ومنحته عملاً غير شريف، لكنه لم يهتمِمْ، كان مثلي وأسوأ، وسرعان ما أجاد في مهنته الجديدة. لقد رأيته آخر مرة هنا، ذلك الرجل الذي زاركم قبل وفاة أمك، هل تتذكره؟

" خالك المزعوم. لم يكن سوى قوادٍ آخر. وتلك الأموال التي تنعم بها الآن، هل أدركت مصدرها؟"

- وحل ذلك اليوم، عدت لبيتي في ساعة متأخرة كعادتي، وفتحت الباب لأتفاجأ بمنظر لن يمحى من ذاكرتي أبداً.

صمت الرجل، وتقلصت عضلات وجهه دلالة على الألم، وبذل جهداً كبيراً ليكمل:

- كانت رائحة الغاز تسود البيت، ربما نسيت زوجتي إغلاقه، ولما اندفعت نحو غرفة النوم، وجدت جثة زوجتي وابني الصغير، وكانت الصدمة التي غيرت حياتي للأبد.

جاءت أمك تعزيني، وطلبت مني أن أعود للعمل، لكنها اكتشفت شخصاً آخر لا تعرفه، كنت أردد على لساني كلمة واحدة: الله. الله. حاولت، وأغرتني بالكثير، لكن بلا جدوى. فغادرت، وجعلت من القروي الذي التقطته من الشارع ذراعها الأيمن الجديد، فأصبح يفعل كل شيء، يفتح الأبواب ويغلقها، ويتصرف في الأموال، وينظم سهرات المجون. كان يوهم أمك بأنه يساعدها، والحقيقة أنه كان يسرقها. هي الخطيئة، تبدأ بذرة صغيرة في قلوبنا، وسرعان ما تنمو لتصبح جزءاً منا، تسري في عروقنا.

ومرضت أمك، داهمها الداء الخبيث، لتفقد الشباب والجمال والفتنة، وليهجرها الجميع، وأولهم ذلك الرجل. وعانت الكثير، لدرجة أنها أصبحت تتسول في الطرقات، لكنَّ الكثيرين كانوا يعاملونها باحتقار، وكانت الألسن تلوكها بقسوة. فقررت مساعدتها، وأخذتها إلى هذا المكان، وتوسطت لها في عملٍ شريفٍ، استطاعت به أن تعلمك، وتجعل منك رجلاً، لكن المرض تمكن منها فانهارت، وماتت في صمت، هي التي ملأت الدنيا صخباً في يوم من الأيام، وملكت قلوب الكثيرين، وعاشت الحياة بشغف ولذة.

واليوم، أرى فيك نفس ملامح أمك التي عاينتها يوم ضاع الشباب والمال، وذات النظرة المليئة حزناً وألماً وعذاباً. أعرف أنك تعاني، لأن طريق الحرام لا يخلف سوى المعاناة. اصحَ من غفوتك يا (سعيد)، ولا تكرر نفس الأخطاء، واعلم أنّ في السماء إلهاً يمهل ولا يهمل.

صمت الرجل، تخلص أخيراً من تلك الكلمات التي حبسها طويلاً في صدره. بينما افتقد (سعيد) القدرة على الكلام، وهبَّ فجأة من مكانه، ليندفع نحو الخارج كأنما يهرب من الواقع المرير. وكان الشارع أكثر قسوة، حيث استقبله (الحاج) صاحب الدكان بابتسامة ساخرة، ولم يجد في نفسه القوة هذه المرة على ضربه، بل شعر بأنه في أقصى حالات ضعفه، واجتمعت نساء الحارة يتبادلن الهمسات والغمزات من جديد. لجأ إلى سيارته، وانطلق

بسرعة رغم الغشاوة التي غطت عينيه بعض الشيء. وصل إلى الفيلا، وانفجر البركان المشتعل بداخله، فبدأ يكسر الأثاث، ويصيح بجنون:

- أنا ابن الحرام. أنا ابن الزانية.

هبت الخادمة مذعورة، وبدأت ترتل آيات من القرآن، صرخ في وجهها يطالبها بالصمت، لكنها استمرت في القراءة، وسقط على الأرض من فرط التعب، فاقتربت منه وقالت:

- لا تخف يا سيدي. إنها نوبة وستزول. نفس الشيء وقع لسيدي السابق.

"آه. الخال المزعوم، هو أيضاً عاش العذاب.". سألها بضعف: -ماذا حدث؟

أخْبرَتْه عن الليالي الحمراء، والسهرات الماجنة التي كانت تنظم في الفيلا، وعن لحظات العذاب التي يعيشها الرجل، وعن ذلك اليوم الذي تأخر في نومه، فتوجهت لتطمئن عليه لتجده مشنوقاً في غرفته. لم يتحمل معاناته، فقتل نفسه بوحشية.

أرعبته النهاية، فهرب من الخادمة، وصعد إلى غرفته، وأصوات كثيرة تتردد في عقله: الموت، العذاب، الحرام، الرذيلة، الشيطان... والله. ارتمى على سريره، ورنّ جرس الباب، رنات متتالية، جعلته يتساءل عن هوية الطارق في هذا الوقت. بعد لحظة، صعدت الخادمة لتخبره بنبرة قلقة أنّ هناك رجال أمن ينتظرونه بالأسفل.

استغرب للأمر، واستعاد بعضاً من رباطة جأشه وهو يهبط الدرجات، وخاطب الضابط:

- نعم.

- مرحباً سيد (سعيد)، أنا العميد (طارق) من مديرية الأمن. عليك مرافقتنا.

- ما الخطب أيها العميد؟

- هناك ستعرف كل شيء.

لم تترك له النبرة الحازمة للعميد فرصة للجدال، فتبع أفراد الأمن، واستقل سيارتهم، وعقله ما فتئ يردد: ماذا وقع؟

****

- توقفت أمام الباب الكبير للسجن، واندهشت لتلك الجموع الكبيرة من البشر التي وقفت تنتظر موعد الزيارة. شعرت بالحيرة وهي تسمع ضحكات بعضهم وأحاديثهم المرحة وكأنهم ذاهبون في نزهة، وأشفقت على آخرين بدا الحزن والأسى في عيونهم. وتساءلت في شرود: ماذا عني؟

فتح الباب الحديدي، واندفع الزوار نحو الداخل، الكل يبحث عن قريب أو حبيب رمت به الأقدار هنا. بحثت بين الوجوه لعلها تلمح زوجها السجين، وقطعت الممر الطويل دون أن تجده أو تلمحه. واستوقفت أحد الحراس، فنظر إليها بغلظة، وسألته بأدب:

- من فضلك، أين يمكنني أن أجد (المعلم محمد)؟

- هل أخبروك أنني شيخ السجن. اذهبي إلى الإدارة واسألي عن (المْعلم محمد) أو (المْعلم عمر).

وانصرف يشق طريقه بين الأجساد الواقفة بنفس السحنة المتجهمة. قارنت في نفسها بين السجان وبين الطبيب الشاب، وتساءلت من جديد: لماذا البشر مختلفون؟

توجهت إلى الإدارة، وسألت موظفاً نفس السؤال عن زوجها. فطلب منها بطاقة الهوية، ولما تأكد من صفتها، طلب منها الانتظار قليلاً، وسرعان ما عاد مرفوقاً برجلٍ آخر، فخاطبها الرجل بأدبٍ:

- اسمعي يا سيدتي. يمكننا أن نتحكم في كثير من الأشياء، لكن القدر لا مفر منه. منذ شهرين تقريباً، وقع شجار كبير في ساحة السجن بين سجينين، وتطور العراك إلى شبه حرب بانضمام سجناء آخرين. لم يكن لزوجك علاقة بالموضوع، لكن قدره أنه تواجد في المكان غير المناسب وفي الوقت غير المناسب، فأصابته إحدى الطعنات وفارق الحياة. أنا آسف.

" ألن أكتفي من الأحزان والمصائب؟ الشخص الوحيد الذي تبقى لي في الحياة يقتل؟ ليس المجرم من قتل زوجي، ولكن (سعيد) هو الذي قتله. هو الذي رمى به في هذا الجحيم؟ قتله، كما قتلني من قبل، وجعلني أعيش بلا روح؟"

انهارت وهي تبكي بحرقة، وحاول الموظف أن يهدئ من رعها وهو يردد على مسامعها: تلك إرادة الله. واستجمعت ما تبقى لها من قوة لتنهض، وتغادر المكان بخطوات متثاقلة. توقفت في الشارع الطويل، أين ستمضي الآن؟ رفعت عينيها إلى السماء، وطلبت العون من الله، فهو الوحيد القادر على مساعدتها. لم تفكر كثيراً، أوقفت سيارة أجرة، وتوجهت إلى أول مكان طرأ على فكرها، إلى المستشفى حيث (خالد) وأمه الطيبة.

- تطلعت لوجهها في المرآة، وطغى عليها شعور بالكآبة بعدما لمحت تجاعيد كثيرة شوهت نضارته. هربت من المرآة نحو صورة قديمة، حيث تجلس فتاة فاتنة، تبدو روعة الحياة في عيونها العسلية. تذكرت بشوق أيام الشباب التي مرت، وتنهدت بقوة. شربت كأساً لعلّ الشراب ينسيها مرارة الذكرى، لكنها لم تفلح. تطلعت إلى الساعة، قد حان موعد الزوار والرقص والمجون والخطيئة، منذ سنوات كثيرة وهي تفتح بيتها للباحثين عن المتعة. اليوم، تأخر الزوار. أتكون حادثة (الحاج) هي السبب. تذكرت أنها علمت بوفاة (الحاج)، زبونها المميز، كان يستعد للسفر لأداء العمرة كعادته، لكن القدر لم يمهله، فمات وهو في الطائرة. جالت الفكرة في رأسها وترسبت في أعماقها، فشعرت بالخوف. "الموت؟ هل سأموت؟". تخيلت نفسها تحت الأرض والتراب ينهال عليها. وعادت بها الذكرى لزمن بعيد، لم تدرِ ما الذي دفعها لذلك المكان، لكنها كانت صغيرة ولم تكن تهتم للأمكنة، بقدر ما كانت تسعى لتشبع فضولها. وجدت نفسها في مقبرة، والتحقت بجمع من الناس، حيث رأت المشهد الذي لم تنسَه طوال حياتها. جسد مغطى برداء أبيض، جسد آدمي، يردم تحت التراب. صرخت، وبكت بحرارة،

وهي تهرب نحو البيت، وظلت لأسبوع كامل تحلم بالموت والجن والعفاريت والوحوش والجحيم.

أخافتها الذكرى الأليمة، فارتعشت يدها وسقط الكأس أرضاً. ومضت تقطع الشقة ذهاباً وإياباً، وصورتها والتراب ينهال عليها لا تفارقها، وتزيد من وقع الخوف والرعب عليها. وتجلت أمام عينيها الحقيقة المُرة، لقد عاشت حياتها في الحرام وبالحرام.

"يا رب". صرخت، واندهشت كيف خرجت الكلمة من شفاهها. منذ متى لم تذكر الله؟، حتى لقبها لم تكن تستحقه، فلم يسبق لها أن حجت أو اعتمرت. الله يحب الخير، وهي لم تفعل الخير يوماً. الله يحبّ الحلال، وهي الحرام بعينه. الله يحب المؤمن الصادق والتائب، وهي تسكنها الخطيئة من رأسها إلى أخمص القدمين، ولم تتب يوماً لله. رفعت رأسها للأعلى، تبحث عن السماء، لتناجي ربها وتطلب المغفرة، لكنها اصطدمت بالسقف وبالثريا الفخمة، فهربت إلى الشرفة، ورنت بعينيها إلى السماء، ولم تعرف ما تقول. توترها دفعها للشرب من جديد، وسرعان ما اكتشفت أنها تعود للحرام، فرمت الكأس أرضاً بعصبية. الشارع مكتظ، لفتت انتباهها جماعة من الأطفال يتبادلون الحديث والضحكات، وتمنت لو كان بمقدورها أن تسترجع طفولتها، وتبدأ الحياة من جديد، لتغير الكثير والكثير. تعالت أصوات بداخلها تصرخ في جنون: "أنت فاسدة، عاهرة، مثقلة بالخطايا، أنت في جهنم...". أغلقت أذنيها في محاولة للتخلص من تأنيب الضمير. ما زال

الأطفال يضحكون، تمنت لو شاركتهم ضحكاتهم البريئة، الأصوات بداخلها تعلو من جديد، وأمنيتها الأخيرة تبدو أقرب، لم تنتظر أكثر، رمت بنفسها من شرفتها نحو الشارع في مشهدٍ مأساوي. تعالت الصرخات من المارة، وحده حارس العمارة من تمتم في أسف: "سبحان الله، يمهل ولا يهمل". ماتت (الحاجة).

****

- توقفت سيارة الشرطة أمام بناية كبيرة، نزل منها (سعيد) محاطاً برجال الأمن، وشعر بأنه محاصر، فتضايق لكن دون أن يملك القدرة على تغيير الوضع. أدخل إلى مكتب أنيق، وزاد ضيقه وهو يرى الجالس أمام مكتب العميد. نفس العيون المنتفخة بفعل السهر، ونفس الملامح الشيطانية، كان (بوشعيب) بلحمه ودمه.

طلب منه العميد أن يجلس، وسأله:

- هل تعرف هذا الرجل؟

- بالطبع. إنه ساعدي الأيمن في الشركة.

- هذا يوفر علينا الكثير من الوقت إذاً. رد العميد بنبرة جادة.

- ماذا تقصد يا سيدي؟

- أظن أنك تعرف سبب تشريفنا بحضورك.

- لا، لا أفهم ما يقع. ولا أعرف شيئاً سيدي.

- لقد ضبط (بوشعيب) متلبساً بتوزيع كمية هائلة من المخدرات. وذلك في المستودعات التابعة لشركتك. كنت تجيد التمويه فعلاً يا سيد (سعيد)، من كان يظن أن شركة مختصة في النسيج، تخفي وراءها تجارة ضخمة في المخدرات؟

بدا له أن العميد يسخر منه، أو بالأحرى يشمت فيه، أو لعلها مجرد مزحة لا غير. لكن النظرات النافذة، وعلامات الحزم والجدية على وجه الرجل كانت تنبئ بغير ذلك. فشعر بأنه سينهار بعد سلسلة متتالية من المصائب، ولجأ إلى سلاحه الأخير:

- أحتاج إلى الاتصال بمحاميّ الخاص.

- لا أظنه سيفيدك. فلدينا مجموعة من المستندات التي تحمل توقيعك وتُدينك. حسابات في بنوك مختلفة، وتهرب من الضرائب، وتبييض للأموال، وتزوير في السجلات، والكثير من الوثائق الأخرى.

"فعلتها أيها الشيطان إذاً؟ كنت أعرف أنك تسرق وتزوّر، لكنّني لم أتخيل أنك ستورطني في تهمة كهذه؟ أين المفر الآن؟ ماذا أنتظر إذاً لأفشي جرائمي الكثيرة أمام العميد؟ هل أخبره أنني قاتل، حاولت قتل صديقي. واغتصبت ابنة جارتي، واتهمت صديقي الآخر ظلماً لأحظى بأخته، وظلمت آخر لأنال زوجته؟ ". وتحدث العميد ليقطع عليه حبل أفكاره:

- إنك مدان يا سيد (سعيد). ستوضع في السجن لحين استكمال التحقيق، وبعدها ستقدم للمحاكمة. وبالنسبة للفيلا والشركة والأرصدة الضخمة فلم تعد ملكك، تمت مصادرة كل أملاكك. ولن تستفيد من الملايير التي ربحتها من الحرام.

ثم التفت إلى (بوشعيب) وخاطبه بحدة:

- أما أنت، فقد اعترفت بكل شيء، وستجد نفسك في المكان الذي تستحقه.

بدأ (بوشعيب) يبكي وينتحب وهو يشير بأصبعه نحو (سعيد)، وصرخ في هستيريا:

- هو السبب. كان بإمكانه أن ينقذني وينقذ نفسه، لكنه يعشق الحرام، ويعيش به. إنه شيطان.

تقطعت أنفاسه بسبب الصرخات المجنونة، وجحظت عيناه الجاحظتان أصلاً، وبدا كأنه يختنق، ثم سقط على الأرض بعنف، كانت نوبة قلبية مفاجئة، لم تترك له فرصة للنجاة. وضحك (سعيد)، ضحكات عالية، سرعان ما اختلطت بشهقات البكاء. رمقه العميد بنظرات احتقار وشرطيان يقودانه نحو الزنزانة، ورمى الآخر بنظرة أسف وهو يحمل نحو المشرحة. مط شفتيه في أسى وقال:

- هل كُتِب عليَّ أن أتفرج على مآسي الآخرين؟

هز رأسه، بعد أن اكتشف أنَّ لا خيار لديه. وبصوت نافذ قوي، نادى أحد مرؤوسيه، وبدأ يصرخ في وجهه ويشتم، ليقتل ذلك الشعور الإنساني الذي تملكه للحظات.

****

- إنه الربيع. منذ سنوات، أصبحت الفصول بالنسبة لسكان هذا الوطن، فصلين لا غير. فصل خريف، وفصل صيف. من كثرة ما جفت الأرض بعد طول انتظار لقطرات الغيث من السماء، ومن كثرة ما لفحت الشمس الوجوه، وساد القيظ والحر ربوع البلاد. فلم يعد الناس، صغيرهم وكبيرهم، ينتظرون المطر، بعد أن فقدوا الأمل. ولم يعودوا يعرفون معنى الربيع، فلا ربيع بلا أمل. لكن، هذا العام، أمطرت السماء، وانتشت الأرض، وعادت البسمات لترتسم على الوجوه، والأمل ليستقر في النفوس. نفوس البسطاء الذين يؤرقهم سعر الطماطم والبطاطس والخبز، فلقمة العيش هي همهم الوحيد، وما أكثر البسطاء في هذه البلاد.

حلّ الربيع إذاً، وكانت صبحية ربيعية جميلة، وتحركت نسمات باردة لتبعد حر الشمس المتربعة في كبد السماء، وتفتحت الأزهار، وحطت أسراب الحمام في الساحة الواسعة، وافترش الأطفال العشب الأخضر، يلعبون ويمرحون، تتابعهم نظرات آبائهم وأمهاتهم، وهم يرون فرحة الدنيا في فرحة أبنائهم. وبالقرب من المكان، وقف رجل يستند على عكاز، وبيده الأخرى يستند على كتف صديق، كان يبتسم وهو يرى حركات الأطفال الرشيقة، ويسمع ضحكاتهم الصافية. ورنا لصديقه بنظرة حب ووفاء قائلاً:

- متى أرى أبناءك يا (عبد القادر)؟

ابتسم (عبد القادر) الذي غطت لحية شقراء وجهه المكتنز، فأصبح أقرب لسحنة إنجليزي محافظ، وقال بود:

- ذلك الأمر يشغل بالي كثيراً. لكن هناك شيء آخر؟

- ما الأمر، هل أبوك بصحة جيدة؟

- الحمد لله، تحسنت حالته. الأمر يتعلق بمستقبلي، فأنا مقبل على امتحان المحاماة، وأدعو الله التوفيق لأحقق حلمي القديم.

- أتمنى لك التوفيق. أما أنا فأترقب موعد نزع الصفائح الحديدية من رجلي، حتى أسعى نحو حلمي أنا أيضاً.

فهم (عبد القادر) أن صديقه يلمح لمسألة الزواج. وتذكر أخته (فاطمة) التي تركها في شقة (خالد) مع أمه و(نجاة). وسأل صديقه بلهفة:

- قل لي يا (خالد)، ما قصة (نجاة)؟

تفاجأ من سؤاله، ونظر إليه يحاول أن يستشف ما وراء العيون المليئة بالإيمان. وطلب منه الجلوس، فجلسا على منضدة حجرية، وبدأ (خالد) يحكي قصة (نجاة) كما سمعها منها، وكما عاشها. تضاربت مشاعر (عبد القادر) وهو يستمع لكلمات صديقه، فشعر بالحزن والأسى لحادثة زوجها مع (سعيد) أولاً، وداخل السجن لاحقاً، وانتابته حالة من الغضب لما فعله بها سعيد، وأخذته الحيرة، وراودته الشكوك وهو يتساءل: "أكان عليها أن تستسلم بسهولة، وترضى بحياة المجون؟ ألم يكن من المفروض أن تقاوم؟".

لكنه عاد وقدر ظروفها، والتمس لها العذر، فالنفس ضعيفة، وما عاشه هو بالذات، يجعله يعترف بضعف الإنسان، واحتمال وقوعه في الخطأ. ولم ينسَ (خالد) أن يخبره بأنها غيرت حياتها تماماً، ووجدت في الله ملجأ وحيداً، تشكو إليه حزنها، وتجد في ذكره ودعوته الكثير من الأمان.

ولم يتأخر (عبد القادر) في إخبار صديقه برغبته الصادقة في الزواج من (نجاة). فتجلت الدهشة في عيون (خالد)، وظن للحظة أن صديقه يمزح. واسترسل (عبد القادر) بهدوء:

- منذ أن التقيتها في المستشفى، شعرت نحوها بشعور غريب. وعندما سمعت قصتها الآن، زاد تقديري لها، وإعجابي بها. لا يهمني ما وقع، بل يهمني الحاضر والمستقبل، وأملي في الله عز وجل أن يجمعنا في خير.

****

- مرت الأيام، تأخذ معها جراح البشر ومآسيهم، وأفراحهم ولحظات الصفاء. تغيرت المدينة كثيراً، كبرت، وتوسعت، وازدادت جمالاً وبهاء. لكنها ظلت الدار البيضاء بالنسبة لأهلها وغير أهلها، والدار السوداء بالنسبة لمن غرقوا في بحرها الهائج ولم يجدوا مرفأ الأمان.

لم ينتهِ الفساد بموت (الحاجة)، فما أكثر "الحاجات" هنا وهناك، وفي كل مكان. ولم ينتهِ المرض بشفاء (خالد) ووقوفه على رجليه، فقبله، وبعده، كثيرون فقدوا أرجلهم بل وحياتهم في حرب شرسة تشهدها البلاد، حرب طرق. ولم ينتهِ الشر بنهاية (سعيد)، فهو منتشر في كل مكان، يسكن القلوب، فيسود الطمع والجشع، وتموت الرحمة في قلوب البشر، ويقتل الإنسان أخاه الإنسان لأتفه الأسباب. ولم يقتصر الخير والفضيلة على (عبد القادر) وأشباهه، بل هي صفات الكثيرين، أولئك الذين فهموا أن الحياة لا تستحق كل هذا القدر من البغضاء والحقد والسوء.

وفتحت الحياة حضنها لـ(عبد القادر)، فأصبح محامياً مرموقاً، يدافع عن المظلومين، بعدما كان في يوم من الأيام واحداً منهم. وكانت (نجاة) نِعم المرأة، رعت زوجها، وملأت بيتهما بالكثير من الحب والحنان. ورزقا ببنت صغيرة، أرادت هي أن تسميها (راضية) تيمناً باسم أمها الراحلة، وتمنى هو

أن يسميها (فاطمة) لتذكره دوماً بأخته. واتفقا أخيراً على تسميتها (زهرة)، وكانت بالفعل زهرة ملأت حياتهما بهاء وجمالاً.

أما (خالد)، فبعد زواجه من (فاطمة)، سنحت له فرصة كبيرة للعمل في كندا. رفضت زوجته في البدء أن ترافقه، بعدما رأت البلد على الخريطة، وارتعبت من بُعده. هي التي لم تغادر (وجدة) سوى مرتين في حياتها، وخلالهما تغيرت حياتها كلياً، لكنها اقتنعت أخيراً، وخاصة بعد أن تدخل أبوها ونصحها بمرافقة زوجها. منذ خمس سنوات وهي تعيش في بلاد الغربة، وحاولت، كما حاول (خالد)، أن يقنعا الأم بمرافقتهما، لكن المرأة أقسمت اليمين ألا تفارق الوطن، فتركها (خالد) مع (عبد القادر)، وهو متأكد أنها ستجد كل الرعاية والحب. حتى أن (زهرة) كانت تناديها: جدتي.

وحل ذلك اليوم. صحت الأسرة السعيدة من النوم، وتوجهت (زهرة) لغرفة جدتها لتوقظها كالعادة. نادتها، وحركتها، ولم تحرك المرأة ساكناً. فنادت الطفلة أمها بلوعة، وكانت الحقيقة المؤلمة، فقد ماتت أم (خالد). ماتت وهي نائمة في هدوء وسكينة، كما عاشت حياتها في هدوء. ولم يستطع (خالد) أن يحضر مراسيم الدفن التي تكفّل بها (عبد القادر)، لكنه قرر المجيء، ليزور قبر المرأة التي ملأت حياته حباً وحناناً وأماناً.

وقف (خالد) في شرفة شقة (عبد القادر) يتأمل الشارع المزدحم. اقتربت منه (فاطمة)، فلمحت في عينيه دمعة حزن، وشعرت برغبة في مشاركته البكاء. التفت نحوها وقال بانكسار:

- اشتقت إليها كثيراً.

ربتت على كتفه بحنان وقالت:

- عاشت طيبة، مؤمنة، وماتت وهي راضية عنك. ادعُ لها بالرحمة والمغفرة

حاول أن يتكلم، لكن الدموع منعته، وتوجه نحو (عبد القادر)، وبصوت منتحب بادره:

- لا أستطيع الانتظار. عليَّ زيارة قبر أمي.

تعلقت (زهرة) بأبيها تطلب منه مرافقتهما، حاولت الأم أن تقنعها بأن المكان لا يليق بالأطفال، لكنها أصرت. وانطلقت السيارة تشق طريقها في الشارع الطويل.

المكان هادئ، ساكن. سكون الأموات الذين يرقدون فيه. أحست الطفلة بالوحشة، فالتصقت بأبيها الذي طلب منها الصمت وهو يبتسم. مرا قرب قبور كثيرة، وتوقفا أمام قبر حديث النشأة. جلس (خالد) على الأرض، وعاودته نوبة البكاء، وأحنى (عبد القادر) رأسه في خشوع، أما (زهرة) فقد التزمت بأمر أبيها، وظلت صامتة. طال جلوس (خالد)، فأوقفه صديقه، ودعاه للدعاء لأمه، فقاوم دموعه، وانخرط في ترديد أدعية بخشوع.

وانبعث صراخٌ، صراخٌ قوي وضحكات هستيرية، جعلت الطفلة تتعلق بأبيها في خوف. التفتا نحو مصدر الصوت، فرأيا شخصاً في حالة يرثى لها، وقد تلطخ جسده بالأوساخ والقذارة، وطال شعره، وبدا وجهه أسودَ، ومثيراً للاشمئزاز.

اقترب الرجل الغريب منهما أكثر، وزاد خوف الصغيرة، فحملها أبوها بين ذراعيه محاولاً تهدئتها. وقف أمامهما، وقد ارتسمت على عينيه ابتسامة بلهاء، ومد يده نحوهما، يد متسخة، قد ملأتها الجروح والقذارة هي أيضاً. وضع (خالد) يده في جيبه يبحث عن بعض النقود، وتسمرت يده في مكانها للحظة، وهو يدقق النظر في عيون الواقف أمامهما. عيون عميقة، لو نظرت إليها من بعيد، لبدا لك كل الحزن فيها، ولو اقتربت منها لشعرت بالخوف. فقط ينقصها البريق. التفت نحو (عبد القادر)، الذي تجمد بدوره وهو يحملق في الرجل، وبصوت خافت ردد:

- (سعيد)... هل أنت (سعيد)؟

واجهتهما ذات النظرة البلهاء، وردد الرجل بكلمات غير متناسقة:

- مال... مال... مال.

أخرج (خالد) ورقة مالية من جيبه وقدمها إليه، فتسلمها بلهفة، وتأملها ملياً، ثم ضحك، ضحكات مجنونة تردد صداها في الفضاء الواسع، وانطلق يجري بين القبور، حتى غاب عن ناظريهما.

رنا (خالد) لصديقه الذي بدا متأثراً بالمشهد أمامه، وانخرطا في صمت طويل. وحدها (زهرة) من تكلمت، بعدما شعرت بالأمان:

- من هذا الرجل، هل تعرفه يا أبي؟

ابتسم في وجهها وقال:

- سنذهب الآن، وسأشتري لك قطعة شوكولاتة أكبر حجماً.

نسيت الطفلة سؤالها الأول، ومضى عقلها يفكر في الطعم اللذيذ لقطعة الحلوى، وسبقتهما إلى الخارج بخطوات رشيقة. وراءها كان (خالد) يرمي القبر بآخر نظراته، وإلى جانبه وقف (عبد القادر) وقد رنا للسماء، وسؤال يتردد في ذهنه:

- ترى ماذا يخبئ الغد؟

تمت بحمد اللّه

****

رواية
مستنقع الخطيئة
هشام أجران

الطبعة الأولى
1443 هـ 2022 م
دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر – بورسعيد

جوال: 00201211132879
00201030502390
E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر .